

روائع الأوقاف في الحضارة الإسلامية

يَا طَالِبَ الْعِلْمِ هَذَا بَابُهُ فُتِحَا ... فَادْخُلْ تُشَاهِدْ سَنَاهُ لاحَ شَمْسَ ضُحَى

وَاشْكُرْ مُجِيرَكَ مِنْ حِلٍّ وَمُرْتَحَلِ ... إِذْ قَرَّبَ اللهُ مِنْ مَرْمَاكَ مَا نَزَحَا

وَشَرَّفَتْ حَضْرَةَ الإِسْلامِ مَدْرَسَةٌ ... بِهَا سَبِيلُ الْهُدَى وَالْعِلْمِ قَدْ وَضَحَا

ما نظمه ابن الجياب الغرناطي الأنصاري في المدرسة العلمية بغرناطة

الفصل الرابع
روائع الأوقاف في الحضارة الإسلامية

جاء الإسلام الحنيف ينادي بالدعوة إلى الخير، ويأمر الناس جميعًا بالتقرُّب إلى الله ﷻ، فخاطبهم بما يُحَبِّبُ إليهم البرَّ والخير عن طريق النَّفْع الذاتي للنفس الخَيِّرة؛ فقال ﷻ: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ﴾(1)، ومن ثَمَّ أرشدنا الإسلام إلى أن كل خير يفعله الإنسان، إنما هو في حقيقة الأمر لنفسه وشخصه؛ كما دَلَّت الآية الكريمة.

لذلك اتَّجه المسلمون منذ زمن رسول الله ﷺ وإلى يومنا هذا إلى فعل الخيرات، وإقامة الطاعات، وكان الوقف من أهمِّ سُبُل الخير وأكثرها نفعًا للمسلمين؛ فالوقف هو الحَجَر الأساسي الذي قامت عليه كل المُؤَسَّسَات الخيريَّة في تاريخ حضارتنا؛ حيث أسهمت في نهضة المجتمعات الإسلاميَّة نهضةً لافتة للنظر والانتباه، جعلت المتأمِّل في تاريخ وفلسفة الحضارة الإسلاميَّة يقف مشدوهًا لمعرفة المغزى الحقيقي لنشأة ووجود الأوقاف الإسلاميَّة، وعدم انقطاعها منذ بداياتها الأولى في عهد رسول الله ﷺ وحتى يومنا هذا.

ولذلك فهذا الفصل يناقش روائع الأوقاف الإسلاميَّة عبر تاريخ الحضارة الإسلاميَّة، والدور الرائد الذي قَدَّمَتْه هذه الأوقاف من خلال ما يلي:

روائع الأوقاف في عصر الخلافة الراشدة

سار الصحابة ﭫ على درب النبي ﷺ خطوة بخطوة، يحدوهم الأمل بفضل الله ﷻ ورحمته؛ ولقد عانى كثير من صحابة النبي ﷺ الحرمان والفقر؛ ورغم ذلك أوقف جمهور الصحابة ﭫ في حياة رسول الله ﷺ ومن بعده: كوقف عمر بن الخطاب ﭬ، وعثمان بن عفان ﭬ الذي اشترى بئر رومة وأوقفها لعامة المسلمين(2)، وطلحة بن عبيد الله ﭬ، فصُرفت هذه الأوقاف على وجوه البرِّ والخير.

ووقْفُ عمر بن الخطاب ﭬ قد ذكره البخاري في صحيحه عن ابن عمر ﭭ أنه قال: «أصاب عمر بخيبر أرضًا فأتى النَّبيَّ ﷺ، فقال: أصبت أرضًا لم أُصبْ مالاً قطُّ أنفس منه، فكيف تأمرني به؟ قال: «إِنْ شِئْتَ حَبَسْتَ أَصْلَهَا وَتَصَدَّقْتَ بِهَا». فتصدَّق عمر ﭬ

---

(1) (البقرة: 272).

(2) علي بن برهان الدين الحلبي: السيرة الحلبية 268/2.

على أنَّه لا يُبَاع أصلها ولا يُوهَب ولا يورث في الفقراء والقربى والرِّقاب وفي سبيل الله والضَّيف وابن السَّبيل، لا جناح على مَنْ وليها أن يأكل منها بالمعروف أو يطعم صديقًا غير مُتَمَوِّلٍ فيه»[1].

فهذه الأرض التي غنِمها عمر ﷺ هي أرض ثَمْغ، لكنه ﷺ أضاف إليها مواضع في خلافته أوقفها معها، وقَدَّمَ على النظر في جميعها حفصة ابنته أم المؤمنين ﷺ، وكتب لها بذلك، ونصُّ الكتاب ذكره أبو داود في سننه: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أوصى به عبد الله عمر أمير المؤمنين إن حدث به حدثٌ[2] أن ثمغًا وصِرْمَةَ ابن الأكوع[3] والعبد الذي فيه، والمائة سهم التي بخيبر ورقيقه الذي فيه، والمائة التي أطعمه محمد ﷺ بالوادي تليَهُ حفصة ما عاشت، ثم يليه ذو الرأي من أهلها؛ أن لا يُباع ولا يُشترى، يُنْفَقُهُ حيث رأى: من السائلِ والمحرومِ وذي القربى، ولا حرج على مَنْ وليه إن أكل أو آكل أو اشترى رقيقًا منه»[4].

ونحن لا نعجب من أوقاف صحابة النبي ﷺ؛ فرغم الفقر والعوز الذي ألم بكثير منهم ﷺ إلا أننا وجدناهم من أحرص الناس على إقامة الأوقاف النافعة ونشرها، ولقد توفي كثير منهم ولم يذروا من الأموال إلا أقل القليل، لكن ذلك لم يُثْنِهم عن أعمال البرِّ والخير المتمثلة في الأوقاف.

فها هو ذا الصحابي الجليل علي بن أبي طالب ﷺ يُوقف في حياته أوقافًا جزيلة وهو في أشدِّ الحاجة إليها؛ حيث جعل أرضه بينبع وقفًا، وكتب فيها كتابًا: «هذا ما أمر به علي بن أبي طالب، وقضى في ماله: إني تصدقت بينبع ووادي القرى والأذينة وراعة في سبيل الله وذي الرحم القريب والبعيد، ولا يوهب ولا يورث، حيًّا أنا أو ميتًا»[5]. وقد قال ﷺ عن صدقته: «لقد رأيتني وإني لأربط الحجر على بطني من الجوع، وإن صدقتي لتبلغ اليوم أربعة آلاف دينار»[6]. ولم يُرِدْ بقوله: أربعة آلاف دينار. زكاة ماله، وإنما أراد الأوقاف التي جعلها صدقة، وكان الحاصل من دخلها صدقة هذا العدد، فإن أمير

(1) سبق تخريجه ص29.

(2) إن حدث به حدث؛ أي: حدث بعمر ﷺ موت. انظر: العظيم آبادي: عون المعبود شرح سنن أبي داود 60/8.

(3) ثمغ وصِرْمَة بن الأكوع: قيل: هما مالان معروفان بالمدينة كانا لعمر بن الخطاب ﷺ فوقفهما. وقيل: المراد في حديث عمر بالصرمة القطعة الخفيفة من النخل ومن الإبل. انظر: العظيم آبادي: عون المعبود 60/8.

(4) سنن أبي داود (2879)، وقال الألباني: صحيح وجادة. الألباني: صحيح وضعيف سنن أبي داود 379/6.

(5) صبحي محمصاني: تراث الخلفاء الراشدين ص517.

(6) ابن الأثير: أسد الغابة 7/4.

المؤمنين عليًا ﷺ لم يَدَّخِرْ مالاً؛ ودليل ذلك ما قاله ابنه الحسن بعد استشهاده: لقد فارقكم رجل ما ترك صفراء ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم، بقيت من عطائه، أراد أن يبتاع بها خادمًا ﷺ[1].

ورغم ذلك، كان الخليفة الراشد علي بن أبي طالب ﷺ يبحث عن الصدقات الدارَّة ليوقفها لله ﷻ؛ كوقف عين أبي نيزر؛ فقد كان أبو نَيْزَر من أبناء بعض ملوك الأعاجم، فرغب في الإسلام صغيرًا، فأتى رسول الله ﷺ وكان معه في بُيُوته، فلما تُوُفِّيَ رسول الله ﷺ صار مع فاطمة وولدها ﷺ قال أبو نَيْزَر: جاءني علي بن أبي طالب وأنا أقوم بالضيعتين؛ عين أبي نيزر والبُغَيْبِغَة[2]، فقال لي: هل عندك طعام؟ فقلت: طعام لا أرضاه لأمير المؤمنين؛ قرعٌ من قرع الضيعة صنعته بإهالةٍ سَنِخَة[3]، فقال: عليَّ به. فقام إلى الربيع -وهو جدول- فغسل يده، ثم أصاب من ذلك شيئًا (أي: الأكل)، ثم رجع إلى الربيع، فغسل يديه بالرمل حتى أنقاهما، ثم ضمَّ يديه، كل واحدة منهما إلى أختها، وشرب بهما حُسًا[4] من ماء الربيع، ثم قال: يا أبا نَيْزَر، إن الأَكُفَّ أنظفَ الآنيةِ. ثم مَسَحَ نَدَى ذلك الماء على بطنه، وقال: مَنْ أدخله بطنُهُ النارَ فأبعده الله! ثم أخذ المِعْوَلَ[5] وانحدر في العين، فجعل يضرب، وأبطأ عليه الماء. فخرج وقد تَفَضَّجَ (سال) جبينه عرقًا، فانْتَكَفَ العرقَ[6] عن جبينه، ثم أخذ المعول وعاد إلى العين، فأقبل يضربُ فيها، وجعل يُهَمْهِمُ[7]؛ فانثالتْ (تفجرت) كأنها عُنُقُ جَزورٍ، فخرج مسرعًا، فقال: أُشْهِدُ الله أنها صدقةٌ، عَلَيَّ بدواة وصحيفة. قال (أبو نَيْزَر): فعَجَّلْتُ بهما إليه، فكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما تَصَدَّقَ به عبدُ الله عليٌّ أميرُ المؤمنين؛ تَصَدَّق بالضيعتين المعروفتين بعين أبي نيزر

---

(1) ابن سعد: الطبقات الكبرى 38/3، وانظر: مجدي فتحي السيد: صحيح التوثيق في سيرة علي بن أبي طالب ص77.

(2) البغيبغة: عين لآل رسول الله ﷺ غزيرة الماء كثيرة النخل.

(3) الإهالة: ما أذيب من الشحم. والسنخة: المتغيرة الريح. ابن منظور: لسان العرب، مادة سنخ 26/3، مادة أهل 28/11.

(4) حُسًا: جمع حسوة، وهي الشربة ملء الفم. ابن منظور: لسان العرب، مادة حسا 176/14، والمعجم الوسيط 174/1.

(5) المعول: الفأس العظيمة ينقر بها في الصخور. ابن منظور: لسان العرب، مادة عول 481/11، والمعجم الوسيط 638/2.

(6) انتكَف العَرَقَ عن جبينه؛ أي: مسَحَه ونحَّاه. ابن منظور: لسان العرب، مادة نكف 340/9، والمعجم الوسيط 953/2.

(7) يهمهم، من الهمهمة؛ وهي ترديد الصوت في الصدر، وهمهم الرجل: تكلَّم كلامًا خفيًا يُسْمَع ولا يُفْهَم محصوله. ابن منظور: لسان العرب، مادة همم 619/12، والمعجم الوسيط 996/2.

والبغيبغة، على فقراء أهل المدينة وابن السبيل؛ لِيَقِي اللهُ بهما وجهه حَرَّ النار يومَ القيامة، لا تُبَاعان ولا تُوهَبَان، حتى يرثهما اللهُ وهو خيرُ الوارثين، إلا أن يَحْتَاجَ إليهما الحسنُ أو الحسينُ فهما طِلْقٌ (حلال) لهما، وليس لأحدٍ غيرهما»[1]. فركب الحسينَ رضي الله عنه دَيْنٌ، فحَمَلَ إليه معاويةُ بن أبي سفيان بعين أبي نيزر مائتي ألف دينار، فأَبَى أن يبيع، وقال: إنما تَصَدَّقَ بها أَبي لِيَقِيَ الله بها وجهه حَرَّ النار، ولستُ بائِعَها بشيءٍ[2].

وأما وقف المساجد فقد بلغ في عصر الراشدين ذروته، حيث كانت المساجد مربوطة بالخلفاء الراشدين والأمراء مباشرة، فهم أنفسهم أئمة المساجد والجوامع الكبرى؛ ففي زمن عمر رضي الله عنه كثرت المساجد، وأُمِرَ ببنائها في مختلف الأمصار الإسلاميَّة؛ فقد أمر سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه بتأسيس مسجد الكوفة[3]، كما أن عُمر رضي الله عنه قد قام بتوسعة المسجد الحرام حيث اشترى بعض الدور المجاورة له وأدخلها فيه[4].

واللافت أن بعض الصحابة قد أوقفوا دورهم على أولادهم (الوقف الذُّري)؛ مثل الزبير بن العوام رضي الله عنه، إذ وقف دوره على بنيه؛ بحيث لا تُبَاع ولا تُورث ولا تُوهب، كما أوقف معاذ بن جبل رضي الله عنه داره التي تُسمَّى دار الأنصار، وقد تبعهم سعد بن أبي وقاص، وخالد بن الوليد، وجابر بن عبد الله، وعقبة بن عامر، وعبد الله بن الزبير، وأمهات المؤمنين رضي الله عنهن[5].

ومن أعجب الأوقاف التي قام بها صحابة النبي ﷺ ما فعله خالد بن الوليد رضي الله عنه؛ فقد «احْتَبَسَ أَدْرَاعَهُ[6] وَأَعْتُدَهُ[7] فِي سَبِيلِ اللهِ»[8]، وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يذكر في وقفيَّته أن ريعها يُنْفَقُ على الفقراء والقربى، وفي الرقاب، وفي سبيل الله عز وجل، والضيف، وابن السبيل، لا جُناح على مَنْ وَلِيَهَا أن يأكل منها بالمعروف أو يُطعم صديقًا غير مُتَمَوِّل فيه[9].

---

(1) المبرد: الكامل في اللغة والأدب 153/3.

(2) السابق نفسه.

(3) الطبري: تاريخ الرسل والملوك 192/4، وابن الأثير: الكامل في التاريخ 259/2.

(4) الفاكهي: أخبار مكة 159/2.

(5) طارق بن عبد الله الحجار: مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، مقال بعنوان: «تاريخ المدارس الوقفية في المدينة النبوية»، 2002م، العدد (120).

(6) الأدراع جمع درع: وهو قميص من حلقات من الحديد متشابكة يلبس وقاية من السلاح. المعجم الوسيط 280/1.

(7) والأعتدة والأعتد: آلات الحرب من السلاح والدواب وغيرها، والواحد عتاد، وعتيد. النووي: المنهاج 56/7، وابن حجر العسقلاني: فتح الباري 153/1، 333/3.

(8) البخاري: كتاب الزكاة، باب قول الله تعالى: ﴿وَفِي الرِّقَابِ . . . وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (التوبة: 60)، (1399)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب في تقديم الزكاة ومنعها، (983).

(9) انظر: البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الوقف (2586)، ومسلم: كتاب الوصية، باب الوقف (1632).

إن أوقاف الصحابة ﷺ دليلٌ على عظمة هذا الجيل الفريد الذي سنَّ لمن جاء بعدهم سُنَّة حسنة ظَلَّتْ باقية حتى عصرنا هذا، ولقد انطلق المسلمون بعد ذلك في تشييد الأوقاف النافعة في كافَّة تخصُّصَاتها؛ حتى أضحت سمة عامَّة من سمات حضارة الإسلام.

روائع الأوقاف في عصر الخلافة الأموية

إن الخلافة الأمويَّة من أَجَلِّ الخلافات التي جاءت في تاريخ الحضارة الإسلاميَّة؛ فلقد اتسعت مساحة الدولة الإسلاميَّة في عهدها اتساعًا ذا أضعاف كثيرة، ودخل الناس في دين الله أفواجًا، فعرفوا حقيقة الإسلام وما يدعو إليه من إقامة الطاعات والخيرات؛ وقد تزامن ذلك مع انتشار الأوقاف وتغلغلها في المجتمع الإسلامي، وحرص الجميع من الخاصَّة والعامَّة على إنشاء الأوقاف بكافَّة أنواعها، وبمختلَف مراميها.

منها إنشاء الأوقاف في المجال الصحِّيِّ الذي تمَّ منذ القرن الأول الهجري، فأوَّل مَنِ اتَّخذ البيمارستانات (المستشفيات) للمرضى هو الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك (ت96هـ)؛ حيث بنى بيمارستانًا بدمشق وسبَّلَه للمرضى[1]، وقد أبدى الوَليد اهتمامًا خاصًّا بمرضى الجذام، ومَنَعَهُمْ من سؤال الناس، وأَوْقَفَ عليهم بلدًا يَدِرُّ عليهم أرزاقًا، كما أمر لكل مُقْعَدٍ خادمًا، ولكلِّ ضرير قائدًا[2].

ومن أشهر الأوقاف التي أُحْدثت في عهد الخلافة الأمويَّة والتي ظَلَّتْ ماثلة حتى يومنا هذا بعد أكثر من ثلاثة عشر قرنًا الجامع الأموي في دمشق (صورة رقم 1، 2) الذي بُني في عهد الوليد بن عبد الملك؛ فقد رُوِيَ أنه «أحضر العَمَلَة من كل جهة، وعدتهم اثنا عشر ألف رجل، وأنفق في عمارته أربعمائة صندوق؛ في كل صندوق من الذهب ثمانية وعشرون ألف دينار ذهبًا أحمر، وامتدَّ بناؤه عشر سنين، وفيه عمود من المرمر يميل إلى الحمرة اشتراه بألف وخمسمائة دينار»[3].

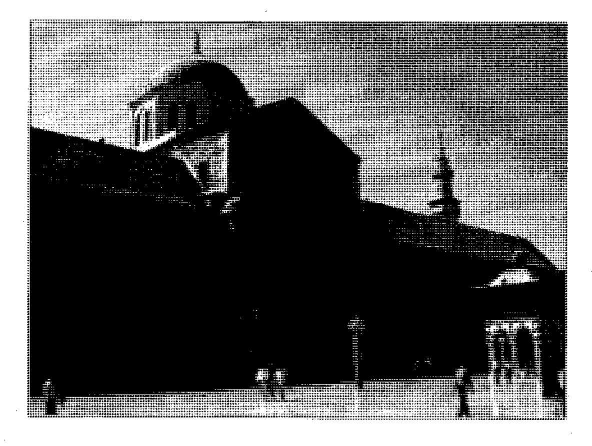
ويبدو أن الوليد بن عبد الملك -رحمه الله- كان من أكثر خلفاء بني أميَّة اهتمامًا بإنشاء الأوقاف؛ فقد كتب إلى والي المدينة المنورة عمر بن عبد العزيز يأمره بتسهيل الثنايا[4] وحفر

(1) انظر: الزهراني: نظام الوقف ص248.

(2) انظر: ابن الأثير: الكامل 292/4، وابن دقماق: الجوهر الثمين ص65.

(3) العصامي: سمط النجوم العوالي في أخبار الأوائل والتوالي 137/2.

(4) الثنايا جمع الثَّنِيَّة: وهي الطريق في الجبل، وقيل: هي الجبل نفسه. وقيل: هي جبال طوالٌ بعَرْضِ الطريق؛ فالطريق تأخذ فيها، وكل عَقَبة مسلوكة ثَنِيَّةٌ. ابن منظور: لسان العرب، مادة ثنى 115/14.



صورة رقم (1)



صورة رقم (2)

الجامع الأموي في دمشق



الآبار الموقوفة، وأن يعمل فوَّارة، فعملها وأجرى ماءها، وأمر لها بقُوَّام يقومون عليها، وأن يُسْقَى منها أهل المساجد[1]، وكتب إلى البلدان جميعها بإصلاح الطرق وعمل الآبار، ورتَّب للقُرَّاء أموالاً وأرزاقًا، وأقام بيوتًا ومنازل (فنادق) يأوي إليها الغرباء[2].

واهتمَّ خلفاء بني أميَّة بحفر الأنهر والقنوات الموقوفة لإيصالها إلى كافَّة المسلمين في كل الأصقاع؛ فقد كتب عامل البصرة إلى عمر بن عبد العزيز -رحمه الله- يعرض طلب أهلها بحفر نهر لهم، فأذِنَ له عمر وحفر النهر[3]، وطلب أهل ولاية أرمينية من عاملها عدي بن عدي أن يحتفر لهم نهرًا، فسأل الخليفة عمر بن عبد العزيز ذلك فأجابه[4]، وقد أمر هشام بن عبد الملك بحفر نهر لأهل قرية حرستا قرب دمشق؛ إذ كانوا بحاجة ماسَّة له[5]، وفي عهد يزيد بن الوليد بن عبد الملك أمر عامله على العراق عبد الله بن عمر بن عبد العزيز أن يحفر نهراً لأهل مدينة البصرة، فحفره وسُمِّيَ بنهر ابن عمر[6].

واهتمَّ خلفاء بني أميَّة ببناء الجسور والقناطر، وجعلوا لها أوقافًا لرعايتها وصيانتها فضلاً عن الإنفاق عليها من بيت المال؛ ففي عام (101هـ) أمر عمر بن عبد العزيز واليه على الأندلس السمح بن مالك -رحمه الله- ببناء قنطرة في قرطبة فتمَّ ذلك[7] (صورة رقم 3)، ومن أعظم الجسور التي أقامها بنو أميَّة الجسر الذي على طريق أذنة[8] من المصيصة، وهو على تسعة أميال منها سنة (125هـ)، فهو يُدْعَى جسر الوليد، أي الوليد بن يزيد بن عبد الملك[9].

وحرصت الخلافة الأمويَّة على إنشاء المقاييس على الأنهر الجارية، وأوقفت عليها أوقافًا جزيلة؛ فمن أَشْهَر وأقدم المقاييس التي بُنِيت مقياس حلوان في مصر، بناه عبدالعزيز بن مروان في خلافة أخيه عبد الملك بن مروان، ثم في عهد أسامة بن زيد التنوخي بُنِي مقياس الروضة بين الفسطاط والجيزة؛ وهو المقياس الذي ظلَّ موجودًا حتى عصرنا هذا[10] (صورة رقم 4).

---

(1) الطبري: تاريخ الرسل والملوك 337/7.

(2) ابن الأثير: الكامل في التاريخ 247/4، والزركلي: الأعلام 121/8.

(3) بشير كمال عابدين: السياسة الاقتصادية والمالية لعمر بن عبد العزيز ص57.

(4) تاريخ خليفة بن خياط ص86.

(5) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق 370/2.

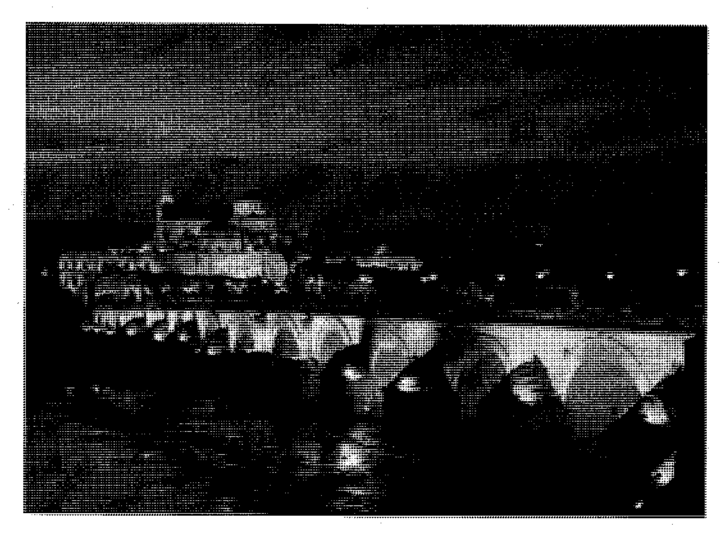
(6) السابق 221/31.

(7) ابن عذارى: البيان المغرب 149/1.

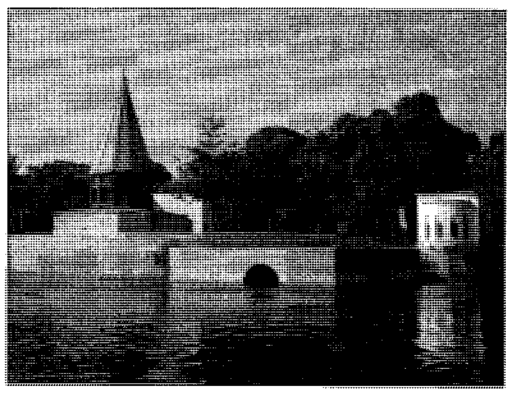
(8) محافظة أضنة (أذنة): هي إحدى محافظات تركيا الآن، عاصمتها مدينة أضنة، والأتراك يشكلون 65% من سكانها، والأكراد يشكلون 20%، والبقية عرب وأرمن وآخرون.

(9) ابن العديم: بغية الطلب في تاريخ حلب 40/1.

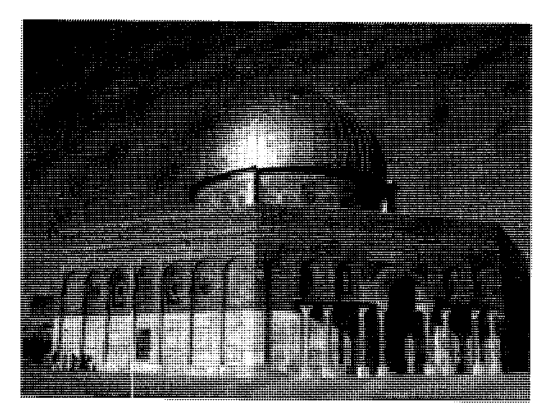
(10) المسعودي: مروج الذهب 152/1.



صورة رقم (3)
قنطرة قرطبة



صورة رقم (4)
مقياس النيل بالروضة



صورة رقم (5)
مسجد قبة الصخرة في القدس



وبعدُ؛ فهذه أبرز الأوقاف التي أُنشئت في عهد الخلافة الأمويَّة؛ فهي امتداد لعهد الخلفاء الراشدين، ولقد تميزت الأوقاف في هذا العصر بالجدَّة؛ حيث رأينا أول مستشفى موقوفًا في الإسلام أنشأه الوليد بن عبد الملك، ووجدنا التفنُّنَ في إنشاء المساجد؛ وكان أبرزها الجامع الأموي في دمشق، ومسجد قبة الصخرة في القدس (صورة رقم 5).

روائع الأوقاف في عصر الخلافة العباسية

حكمت الخلافة العباسيَّة فترة زمنيَّة ليست بالقليلة؛ إذ تجاوزت خمسة قرون متصلة؛ وقد شهدت الدولة الإسلاميَّة في عهدها تَنَوُّعًا ديمغرافيًّا لم تشهده من قبلُ؛ فقد نشأت كثير من الدول -في ظلِّ هذه الخلافة- بصورة مستقلَّة، ورغم ذلك الزخم من الأحداث تَوَحَّدَت الأمة على إنشاء الأوقاف جيلاً بعد جيل، فأدَّتْ دَوْرَها على أفضل حال على مدار مئات السنين.

فالوقف الصِّحِّيُّ من أهمِّ الأوقاف التي اهتمَّت مؤسسة الخلافة بإنشائها منذ فترة مبكرة؛ فلقد انتشرت البيمارستانات الموقوفة في عهد الخلافة العباسيَّة انتشارًا واسعًا؛ بل استقدم الخلفاءُ كبار الأطباء للعمل في هذه البيمارستانات؛ إذ استقبل الخليفة العباسي المنصور الطبيبَ النصراني الشهير جيورجيس بن بختيشوع الجنديسابوري في بغداد، وقد أوصاه أن يُعَلِّمَ الطب وينشره، وممارسته في بيمارستانات العاصمة الإسلاميَّة[1].

وقد اهتمَّت الدولة بشراء كتب كبار علماء الطب ووَقْفِهَا في البيمارستانات العامَّة؛ ليستفيد منها صغار الأطباء في وصف الأدوية الناجعة؛ مثل ما أوقفته الدولة من كتب عالم الطب الشهير سابور بن سهل (ت 255هـ) صاحب بيمارستان جنديسابور، ومن أشهر كتبه الموقوفة كتاب الأقراباذين، الذي وُجِدَ في كثير من المستشفيات العامَّة بما فيها بيمارستان بغداد[2].

ومن أهمِّ البيمارستانات التي أُوقفت في بغداد البيمارستان العضدي، فقد أنشأه عضد الدولة البويهي في بغداد سنة (366هـ=976م)، وكان ذلك في الجانب الغربي من مدينة بغداد، وكان البيمارستان يضمُّ 24 طبيبًا؛ ممَّا يدلُّ على اتِّساعه وتعدُّد تَخَصُّصَاته، ووقف عضد الدولة لهذا البيمارستان وقوفات كثيرة؛ فكان العلاج مَجَّانًا لجميع المواطنين، وكان المريض يلقى العناية الفائقة في المستشفى من الثياب الجديدة النظيفة، ومن الأغذية المُتَنَوِّعة، والأدوية اللازمة، وبعد شفاء المريض، كان يُعْطَى نفقة سفرياته ليستطيع العودة إلى بلده[3].

---

(1) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص67.

(2) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء 80/2.

(3) انظر: ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء 67/1، ومحمد حسين علي: تاريخ العرب والمسلمين ص196، وقدري حافظ طوقان: العلوم عند العرب والمسلمين ص32، 34.

كما انتشرت البيمارستانات الموقوفة في أقاليم الخلافة الإسلاميَّة؛ فوُجدت بيمارستانات في الري وجنديسابور ومصر وبلاد المغرب وغيرها؛ وكان بعض الولاة يُنفق على هذه البيمارستانات أموالاً طائلة؛ مثل ما فعله أحمد بن طولون والي مصر؛ إذ أنشأ أول بيمارستان في مصر عام (259هـ)، «فلما فرغ منه حبس عليه دار الديوان، ودُوره في الأساكفة.. وسوق الرقيق، وشرَطَ في المارستان ألا يُعالج فيه جنديٌّ ولا مملوك، وعمل حمَّامَيْن للمارستان، أحدهما للرجال والآخر للنساء، حبسهما على المارستان وغيره. وشرط أنه إذا جيء بالعليل تُنزع ثيابه ونفقته، وتحفظ عند أمين المارستان، ثم يُلْبَس ثيابًا ويُفرش له، ويُغدى عليه ويُراح بالأدوية والأغذية والأطباء حتى يبرأ، فإذا أكل فَرُّوجًا ورغيفًا أُمِرَ بالانصراف، وأُعْطِيَ ماله وثيابه. وفي سنة اثنتين وستين ومائتين كان ما حبسه على المارستان والمسجد في الجبل الذي يُسمى بتنور فرعون، وكان الذي أنفق على المارستان ومستغلِّه: ستين ألف دينار، وكان يركب بنفسه في كل يوم جمعة ويتفقَّد خزائن المارستان وما فيها والأطباء، وينظر إلى المرضى وسائر الأعلاَّء والمحبوسين من المجانين»[1].

ومما يستلفت الانتباه، ويُدَلِّلُ على عِظَم دور البيمارستانات الموقوفة؛ ما كان يحدث في زمن الخلافة العباسيَّة، والدَّوْر العظيم الذي أدَّته مؤسسة بيمارستانات بغداد؛ إذ ذكر ابن أبي أصيبعة أن من بين مهام البيمارستان العظيمة، أنه كان يوفد أطباء متخصِّصين للقيام بجولات علاج مجانيَّة على نفقة البيمارستان في كافَّة الأمصار الإسلاميَّة، وخاصة أهل السواد، أي العامَّة في القرى النائية، وهو شبيه بما نسميه اليوم بـ «القوافل الطبِّيَّة» أو «العيادات المتنقِّلة»؛ فقد ذكر ابن أبي أصيبعة أن سنان بن ثابت بن قرة مدير مستشفيات بغداد جاءه توقيعٌ (أي: خطابٌ) من أحد الولاة يستحثُّه على إحضار أطباء متخصِّصين للقيام بجولات علاجيَّة لأهل السواد، وكان مما جاء في الخطاب: «إنه لا يخلو أن يكون فيه مرضى لا يُشرف عليهم متطبِّبٌ؛ لخلوِّ السواد من الأطباء، فتَقَدَّم -مد الله في عمرك- بإنفاذ متطبِّبين وخزانةً للأدوية والأشربة يطوفون في السواد، ويُقيمون في كل صقع منه مدَّةَ ما تدعو الحاجة إليه، ويُعالِجُون مَنْ فيه مِنَ المرضى، ثم ينتقلون إلى غيره، ففعل (سنان بن ثابت)»[2]. واللافت للنظر أن هذه الجولات كانت تعالج المرضى من أهل الذمة، بل إنها كانت تعالج الحيوانات المريضة!!

---

(1) المقريزي: المواعظ والاعتبار 546/3.

(2) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء 211/1.

وكانت مهمَّة القائم على البيمارستانات رعاية شئون المرضى على كافَّة مستوياتها العلاجيَّة والنفسيَّة والبيئيَّة؛ وتوفير المسكن اللائق، والمأكل الجيد، والعناية بأحوال الطقس، بيد أن الأموال الموقوفة كانت تحت تصرُّف نظَّار مسئولين، وهو ما نسميه اليوم بـ«الشئون الماليَّة»؛ وقد كان صاحب البيمارستانات يستحثُّ هؤلاء النظَّار بإرسال المال الكافي لرعاية المرضى ومباشرة شئونهم؛ فإن وَجَدَ تعنتًا أو حيفًا فإنه كان يُرسل إلى الوزير مباشرة؛ ليُعْلِمَه الوضع القائم؛ فتستجيب الدولة على الفور دون تعنُّت أو «بيروقراطية»؛ فقد وجد سنان بن ثابت أن متولِّي وقف البيمارستانات - وكان الوقف مشتركًا بين المستشفيات والإنفاق على بني هاشم- في بغداد أبا الصقر وهب بن محمد الكلوذاني يصرف إلى بني هاشم، ويُؤَخِّر ما يُصرَف إلى نفقة البيمارستان ويُضيِّقه؛ فكتب إلى الوزير علي بن عيسى كتابًا شديد اللهجة؛ جاء فيه: «أنت، أكرمك الله، تقف على ما ذكره (أبو الصقر المتولِّي) وهو غلط جدًّا والكلام فيه معك، وما أحسبك تسلم من الإثم فيه. . . لا بُدَّ من تعديل الحال فيه، بأن تجعل للبيمارستان قسطًا، بل هو أحقُّ بالتقديم على غيره؛ لضعف مَنْ يلجأ إليه، وعظيم النفع به، فعَرِّفْني -أكرمك الله- ما النكتة (القصد) في قصور المال ونقصانه في تخلُّف نفقة البيمارستان هذه الشهور المتتابعة، وفي هذا الوقت؛ خاصَّة مع الشتاء واشتداد البرد، فاحْتَلْ بكل حيلة لما يطلق لهم ويُعجل حتى يدفأ مَنْ في البيمارستان من المرضى بالدثار والكسوة والفحم، ويُقَام لهم القوت، ويَتَّصل لهم العلاج والخدمة، وأجبني بما يكون منك في ذلك، وأنفذْ لي عملاً يَدُلّني على حُجَّتِكَ، واعْنَ بأمر البيمارستان فضل عناية، إن شاء الله تعالى»[1].

وكما اهتمَّت مؤسَّسَة الخلافة في العاصمة بغداد بإنشاء الأوقاف الخيريَّة والاجتماعيَّة والاقتصاديَّة، فإن ولاة الأقاليم والثغور لم يَأْلُوا جهدًا في بناء الأوقاف العسكريَّة والإنفاق عليها؛ وكانت من أهمِّ الأوقاف التي تُنشأ حينئذٍ الرباطات؛ لما لها من أهميَّة عسكريَّة وأمنيَّة للدولة الإسلاميَّة؛ وكانت هذه الرباطات بمثابة حاميات عسكريَّة في مناطق التماس مع العدوِّ؛ وممن اهتموا ببناء هذه الرباطات الأمير إسماعيل بن أحمد بن أسد بن سامان[2] الذي كان يأمر ببناء الرباطات في الصحارى الواسعة المقفرة، وكان يُوقف عليها الأوقاف الضخمة، حتى إن كل رباط كان يسع ألف فارس؛ ولذلك فهو الذي هزم أشدَّ أعداء الخلافة الإسلاميَّة من جهة الشرق، وهم الترك آنئذٍ[3].

---

(1) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء 211/1.

(2) الأمير إسماعيل بن أحمد بن أسد بن سامان: كان أميرًا للدولة السامانية التي مقرُّها الشاش وسمرقند وفرغانة وما وراء النهر، وقد ولي إمرة خراسان بعد عمرو بن الليث الصفار، وكان ملكًا شجاعًا صالحًا، توفي عام (295هـ).

(3) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة 325/1.

وقد كان للأثرياء وكبار التجار -وهم مَنْ نُسَمِّيهم في عصرنا بطبقة رجال الأعمال- دورٌ كبير في إنشاء الأوقاف بمختلَف تخصُّصاتها؛ فهذا أحد كبار التجار ويُدْعَى عفان بن سليمان بن أيوب (ت 324هـ) «أقام بمصر وأوقف بها أوقافًا دارَّة على أهل الحديث، وعلى سلالة العشرة ﷺ»[1].

ومثل ذلك ما فعله فخر الدولة بن المطلب (ت 578هـ) وهو أحد كبار الأثرياء في بغداد فقد «عمرً مدرسته المعروفة بدار الذهب وسلّمها إلى جمال الدين بن فضلان الشافعي، وأوقف عليها وقفًا حُرًّا يكون محصوله في كل سنة ألفًا وخمسمائة دينار، وعمَّر رباطًا للصوفيَّة مجاورًا لمدرسته وأوقف عليه جملة كثيرة، وعمَّر جامعًا كبيرًا في الجانب الغربي من مدينة السلام، وغرم عليه حدودًا من ثلاثين ألف دينار، وأوقفَ عليه وقوفًا كبيرة، وجعل الولاية والوصيَّة إلى جلال الدين بن البخاري نائب الوزارة»[2].

بل كانت للعلماء أوقافهم الخاصَّة بهم، مثل كتبهم وأموالهم وبيوتهم، وغيرها من الأوقاف النافعة، والقارئ للتاريخ الإسلامي المجيد يجد أن أوقاف العلماء مما لا يكاد أن يُحْصيَه مؤلَّفٌ من المؤلفات؛ فالحافظ الخطيب البغدادي (ت 463هـ) قد أوقف جميع كتبه على المسلمين عند وفاته[3].

واهتمَّ أبناءُ الحضارة الإسلاميَّة ببناء المكتبات العامَّة والخاصَّة وإنشاء الأوقاف الخاصَّة بها، حتى لم تخلُ الدروب الصغيرة والحارات والأزقَّة من مكتبات موقوفة، كان يُطلق عليها دار العلم، وكان إنشاء هذه المكتبات غير متوقِّف على الدولة ومؤسَّساتها؛ إذ حُقَّ لكل ميسور وغني أن يُنشئ هذه المكتبات؛ مثل ما فعله الطبيب الشهير عبيد الله بن علي المعروف بابن المارستانية (ت599هـ)؛ فقد بنى داراً بدرب الشاكرية ببغداد، وسماها دار العلم، وجعل فيها خزانة كتب أوقفها على طلاب العلم[4]!

ولم يتوقَّف إنشاء المكتبات العامَّة والخاصَّة في العاصمة بغداد والمدن الكبرى القريبة منها كدمشق والقاهرة والكوفة والبصرة؛ بل وُجدت مكتبات موقوفة في الأماكن النائية والبعيدة عن مركز الخلافة الإسلاميَّة؛ ففي قزوين حرص أميرها أبو طاهر بن أبي علي الجعفري على بناء دار الكتب على باب الجامع، ووقف عليها أوقافًا جزيلة، وذلك عام (415هـ)[5].

(1) ابن كثير: البداية والنهاية 211/11.
(2) محمد بن تقي الدين الأيوبي: مضمار الحقائق وسر الخلائق ص130.
(3) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق 39/5.
(4) الصفدي: الوافي بالوفيات 313/6.
(5) الرافعي: التدوين في أخبار قزوين ص70.

واهتمَّ العباسيون بإنشاء مكتبات موقوفة في الجوامع والمساجد الكبرى؛ ليستفيد بها العامَّة والخاصَّة على السواء؛ مثل القبة الغربية في الجامع الأموي بدمشق، التي بُنيت عام (160هـ) في عهد المهدي بن أبي جعفر المنصور، وسُمِّيَتْ فيما بعد باسم قبة عائشة؛ فقد كانت مختصَّة لحواصل الجامع وكتب أوقافه[1].

بل هناك ما هو أطرف من ذلك ولم نشاهده حتى الآن في أي عاصمة عالميَّة -غربيَّة كانت أو شرقيَّة- وهو ما وجدناه في مدينة الموصل؛ حيث أنشأ هناك أبو القاسم جعفر بن محمد بن حمدان الموصلي (ت 323هـ) مكتبة سمَّاها دار العلم، وجعل فيها خزانة كتب من جميع العلوم وقفًا على كل طالب علم، ولا يُمْنَعُ أحد أبدًا من دخولها، وإذا جاءها غريب يطلب العلم وكان مُعسِرًا أَعْطَوْه وَرَقًا ووَرِقًا، (أي كتبًا ونقودًا)[2]! فهل نسمع الآن عن مكتبة في أي مدينة من مدن العالم تُعطي لرُوَّادها علمًا ومالاً في آن واحد؟!

واللافت أن الطبقة المتوسطة في ظلِّ الخلافة العباسيَّة -من التجار والعلماء وغيرهم- كانوا يحرصون على بناء الأوقاف النافعة، فهذا هو الإمام الواعظ عبد الملك بن محمد الخركوشي النيسابوري (ت 407هـ) كان يعمل القلانس[3]، ويأكل من كسب يده، نراه يبني «مدرسة ودارًا للمرضى، ووقف الأوقاف، وله خزانة كتب موقوفة»[4].

ولقد أُوقِفَتِ الأموال الضخمة لإنشاء مكتبات تَفْتَحُ أبوابها للعامَّة مجَّانًا، بل كان في بعضها غرف لطعام رُوَّادها مَجَّانًا، وكذلك غرف لنوم الغرباء دون كلفة، ومن هذه المكتبات على سبيل المثال مكتبة علي بن يحيى بن المنجم[5]، وكانت هذه المكتبة جزءًا من قصره العظيم في قرية قريبة من بغداد اسمها قرية كركر، وكان يُطْلَقُ على هذه المكتبة خزانة الحكمة، وكان الناس يقصدونها من كل مكان فيُقِيمُون فيها ويَتَعَلَّمُون منها، والإنفاق عليهم مستمرٌّ دومًا من الأوقاف التي أوقفها علي بن يحيى على رُوَّاد المكتبة[6].

---

(1) ابن كثير: البداية والنهاية 180/9.

(2) مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا ص121.

(3) القلانس جمع القلنسوة: وهي لباس للرأس مختلف الأنواع والأشكال. ابن منظور: لسان العرب، مادة قلس 179/6، والمعجم الوسيط 754/2.

(4) الذهبي: سير أعلام النبلاء 257/17.

(5) أبو الحسن المنجم: هو علي بن يحيى بن أبي منصور (201 - 275هـ=816 - 888م)، نديم المتوكل العباسي، خص به وبمن بعده من الخلفاء إلى أيام المعتمد، يُفضون إليه بأسرارهم، ويأمنونه على أخبارهم، وكان راوية للأشعار والأخبار، شاعرًا محسنًا، توفي بسامراء، صنف عدة كتب منها: «كتاب الشعراء القدماء الإسلاميين». انظر: الزركلي: الأعلام 31/5.

(6) انظر: ياقوت الحموي: معجم الأدباء ص214، ومصطفى السباعي: من روائع حضارتنا ص121.

وكان للمرأة في ذلك العصر نصيب وافر من إنشاء الأوقاف؛ فممن اشتهرنَ بهذه الأوقاف السيدة زبيدة بنت جعفر بن المنصور زوجة الخليفة هارون الرشيد -رحمة الله عليها- فقد تناولت المصادر التاريخيَّة سيرتها الحميدة، وأفعالها التي ظَلَّتْ آثارها باقية حتى عصرنا هذا؛ فقد اهتمَّت ببناء دور السبيل بمكة، واتخاذ المصانع والبرك والآبار بها، وما أحدثته من الدور للتسبيل بالثغر الشامي وطرسوس وما أوقفت على ذلك من الوقوف؛ ومما يلفت الانتباه أنها حفرت عين المشاش بالحجاز، ومهدت الطريق لمائها في كل خَفْض ورفع وسَهْل وجبل ووَعْر، حتى أخرجتها من مسافة اثني عشر ميلاً إلى مكة، فكان جملة ما أنفقت عليها -مما ذُكِرَ وأُحْصِيَ- مليونًا وسبعمائة ألف دينار، وهو مبلغ ضخم جدًّا بمقاييس عصرنا هذا[1]، وكذلك كانت أم الخليفة العباسي المقتدر التي أوقفت الكثير على أبواب البِّر والقرب بمكة والمدينة والثغور وعلى الضعفاء والمساكين[2].

ولم يتوقَّف إنشاء الأوقاف على العاصمة الإسلاميَّة بغداد؛ إذ قلما خلت مدينة أو قرية صغيرة من أوقاف الصالحين وأعمال المسلمين الخيرين، ففي تاريخ جرجان نجد أن قاضيها الأشعث بن هلال قد وُجدت له أوقاف كثيرة؛ منها: مسجده الذي كان ملاصقًا بدرب رأس التل[3]، وفي سمرقند نجد الأمير محمد بن لقمان بن سامان (ت 325هـ) يبني لطلبة العلم صُفَّة[4]، وقد أنفق عليها مالاً ووقف عليها وعلى مَنْ يسكنها من طلبة الحديث أوقافًا طائلة[5]، وكان الأمير الغزنوي محمود بن سُبُكتُكين قد أوقف عشرة آلاف قرية على الفقراء والمحتاجين وطلبة العلم والمرضى وأهل الثغور والأجناد، وغيرهم[6].

ولقد أُوقفت المدارس بمختلف تخصُّصاتها منذ القرن الرابع الهجري، وكانت بعض هذه المدارس بمثابة كليات وجامعات عالميَّة يقصدها الطلاب المسلمون وغير المسلمين من كل جانب، وقد ذكر ابن كثير في حوادث عام (383هـ) أن الوزير أبا نصر سابور بن أردشير[7] قد اشترى «دارًا بالكرخ، وجدَّد عمارتها، ونقل إليها كتبًا كثيرة، ووقفها على

---

(1) خاصة إذا علمنا أن الدينار الشرعي يساوي 4.25 جرام ذهبي خالص، المسعودي: مروج الذهب 173/2، 174.

(2) ابن الأثير: الكامل 76/7.

(3) حمزة بن يوسف الجرجاني: تاريخ جرجان ص176.

(4) الصُّفَّةُ من البُنْيان: شبه البَهْو الواسع الطويل السَّمْكِ. ابن منظور: لسان العرب، مادة صفف 194/9، والمعجم الوسيط 517/1.

(5) محمد بن عبد الغني البغدادي: تكملة الإكمال 122/3.

(6) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى 317/5.

(7) سابور بن أردشير: هو أبو نصر سابور بن أردشير (ت 416هـ) وزير بهاء الدولة أبي نصر بن عضد الدولة؛ كان من أكابر الوزراء، وكان شهمًا مهيبًا كافيًا، جوادًا ممدَّحًا، له دار علم ببغداد. انظر: الذهبي: سير الأعلام 387/17، وابن خلكان: وفيات الأعيان 354/2.

الفقهاء، وسمَّاها دار العلم، وأظنُّ (ابن كثير) أن هذه أول مدرسة وُقفت على الفقهاء، وكانت قبل النظاميَّة بمدَّة طويلة»[1].

وما لبث إنشاء المدارس الموقوفة أن أخذ طريقه نحو التوسُّع والانتشار؛ فقد بُنيت أول مدرسة في دمشق في عام (391هـ)، بناها شجاع الدولة صادر بن عبد الله[2]، وسُمِّيَت بالمدرسة الصادريَّة[3]، وتبعه بعد ذلك مقرئ دمشق رشأ بن نظيف؛ حيث قام بتأسيس المدرسة الرشائيَّة في حدود الأربعمائة، وإلى هذه المدارس خرج الطلبة من الحلق التي كانت تُعْقَد في المسجد إلى مكان يختصُّ بتلقِّي علم مُعَيَّن، فيُوقف عليهم وعلى شيوخهم الأموال الدارَّة، والأطعمة والأشربة النافعة، وتُوفِّر لهم أسباب التعليم[4].

وتُعتبر سلسلة المدارس النظاميَّة من أشهر الجامعات العالميَّة في تاريخ الحضارة الإسلاميَّة، فلقد أسدى الوزير نظام الملك الطوسي (ت485هـ) للحضارة الإسلاميَّة ما خلَّد ذكره، وفاق كل أعماله في دنيا الحكم والسياسة، وذلك بإنشائه عددًا من المدارس في أنحاء الدولة نُسبت إليه، فسُمِّيَتْ بـ«المدارس النظاميَّة»، وقد هيَّأ لطلابها أسباب العيش والتعليم، وقد خُصِّصَت المدارس النظاميَّة لتعليم الفقه والحديث، وكان الطلاب يتناولون فيها الطعام، وتجري على كثير منهم رواتب شهريَّة.

ونتيجة لتحمُّس نظام الملك، وتَبَنِّيه إنشاء المدارس في المناطق المختلفة فقد تَرَتَّب على ذلك أن امتلأت بلاد العراق وخراسان بعشرات المدارس؛ حتى قيل فيه: إنَّ له في كل مدينة بالعراق وخراسان مدرسةً، وكان يُنشئ المدارس حتى في الأماكن النائية، وكان كُلَّما وَجَدَ في بلدةٍ عالمًا قد تميَّز وتبحَّر في العلم بنى له مدرسة ووقف عليها وقفًا، وجعل فيها دارَ كُتبٍ، وكان التلاميذ يتعلَّمُون فيها بالمجَّان، وللطالب الفقير فوق كل ذلك شيءٌ معلوم يتقاضاه من الريع المُخَصَّصِ لذلك[5].

ومن أهمِّ المدارس التي أنشأها نظام الملك: المدرسة النظاميَّة ببغداد؛ التي بُدئ في بنائها سنة (457هـ)، وانتهى بناؤها في عام (459هـ)[6]، وبلغ من اهتمام الخليفة العباسي بها

---

(1) ابن كثير: البداية والنهاية 312/11.

(2) صادر بن عبد الله: هو صاحب المدرسة الصادرية داخل باب البريد على باب الجامع الأموي الغربي، أنشأها بدمشق سنة 491هـ. انظر: ابن عساكر: تاريخ دمشق 46/52.

(3) عبد القادر النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس 413/1.

(4) عارف عبد الغني: نظام التعليم عند المسلمين ص89.

(5) انظر: مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا ص103، 104.

(6) ابن كثير: البداية والنهاية 92/12.

أنه كان يُعَيِّن الأساتذة فيها بنفسه، وكان يُدَرَّس فيها الفقه والحديث، وما يَتَّصل بهما من علوم، وقد دَرَّس فيها مشاهير الفكر والثقافة؛ مثل: حُجَّة الإسلام أبي حامد الغزالي صاحب إحياء علوم الدين[1]، في الوقت الذي كان يُدَرِّس في نظاميَّة نيسابور إمام الحرمين أبو المعالي الجويني[2].

وكانت المدرسة المستنصريَّة الموقوفة -بُنيت عام (631هـ)- أعظم جامعة متطوِّرة في تاريخ الإسلام والعالم كله، والعجيبُ أن هذه المدرسة قد بُنيت وأُنفق عليها الملايين من الدنانير والدراهم[3]، في وقت كان التتار يجتاحون العالم الإسلامي؛ مما يُدَلِّل على اهتمام الخلافة العباسيَّة بالعلم وطلابه (صورة رقم 6، 7)، وقد وصف لنا الحافظ ابن كثير -رحمه الله- حالة هذه المدرسة بقوله: «ولم يُبْنَ مدرسةٌ قبلها مثلها، ووقفت على المذاهب الأربعة من كل طائفة اثنان وستون فقيهًا، وأربعة معيدين، ومدرِّس لكل مذهب وشيخ حديث وقارئان، وعشرة مستمعين، وشيخ طبٍّ، وعشرة من المسلمين

(1) المصدر السابق 169/12.

(2) ابن الجوزي: المنتظم 167/9.

(3) قال الإمام الذهبي -رحمه الله- عن وقفية هذه المدرسة: «رأيت نسخة كتاب وقفها في خمسة كراريس، والوقف عليها عدَّة رباع وحوانيت ببغداد، وعدَّة قرى كبار وصغار؛ ما قيمته تسعمائة ألف دينار فيما يخال إليَّ، ولا أعلمُ وقفًا في الدنيا يقاربُ وقفها أصلاً سوى أوقاف جامع دمشق؛ وقد يكون وقفها أوسع. فمِنْ وقفها بمعاملة دُجَيل: قصرُ سُمَيْكة (في شمال بغداد)؛ وهي ثلاثة آلاف وسبعمائة جريب (والجريب من الطعام والأرض: مقدار معلوم؛ وهو مساحة من الأرض قدرها 6 قصبات = 1366, 04 م^2، ومكيال قدره أربعة أقفزة = 48 صاعًا = 132 لترًا)، والجَمَد (من ناحية دجيل) وضياعه كلها؛ ومساحته ستة آلاف وأربعمائة جريب، والأَجَمة كلها؛ وهي خمسة آلاف جريب وخمسون، ومن نهر المَلِك بَرَفْطا (قرية من قرى نهر الملك) كلها؛ وهي خمسة آلاف وخمسمائة جريب، وناحيةُ البدو؛ وهي ثلاثة آلاف وتسعمائة وتسعون جريبًا، وقوسنيثا؛ وهي ثلاثة آلاف جريب ونيف، وقريةُ يزيد كلها؛ وهي أربعة آلاف جريب ومائة وثمانون جريبًا، ومن ذلك ناحية طبسنى؛ ومساحتها ثمانية آلاف ومائة جريب، ومن ذلك سُستا؛ وهي ثلاثة آلاف جريب وزيادة، وناحيةُ الأرحاء؛ وهي أربعةُ آلاف جريب، ومن ذلك ناحية البسطاميَّة؛ وهي أربعة آلاف جريب، والفراشة؛ ألفُ جريب، وقريةُ حد النهرين؛ وهي ألف جريب ومائتا جريب، والخطابيَّة؛ وهي أربعة آلاف وثمانمائة جريب، وناحيةُ بزندي؛ وهي ستة آلاف وخمسمائة جريب، ومن ذلك الشدادية ومبلغها عشرون ألف جريب ومائتان وخمسون جريبًا، وحصن بقية؛ وهو أربعة آلاف جريب وثمانمائة، ومن ذلك فرهاطيا؛ ستة آلاف جريب، ومن ذلك حصن خراسان؛ وهي خمسة آلاف جريب وتسعمائة جريب، وما أضيف إلى ذلك، وهو سبعة آلاف جريب ومائتا جريب. ومن أعمال نهر عيسى قريةُ الجديدة؛ وهي ألفا جريب وستمائة جريب، والقطنية؛ وهي ستة آلاف وأربعمائة جريب، وقرية المنسل؛ وهي خمسة آلاف وخمسمائة جريب، وميثا؛ وهي ألفان وخمسمائة جريب، وقرية الدينارية؛ وهي أربعة آلاف وستمائة جريب، والناصرية كلها؛ وهي تسعة عشر ألف جريب. فالمرتزقة من أوقاف هذه المدرسة على ما بلغني نحوٌ من خمسمائة نفس؛ المدرسون فمَنْ دونهم، وبلغني أن تِبْنَ الوقف يكفي الجماعة ويبقى مُغَلُّ هذه القرى (أي ما تعطيه القرية من إنتاج وغلَّة وأصلها باقٍ) مع كَرْي الرباع فضلةً، فكذا فليكن البِرُّ وإلا فلا. وحدثني الثقة أن ارتفاع وقفها بلغ في بعض السنين وجاء نَيفًا وسبعين ألف مثقال ذهبٍ». الذهبي: تاريخ الإسلام 7/46، 8.



صورة رقم (6)



صورة رقم (7)

المدرسة المستنصرية



يشتغلون بعلم الطبِّ، ومكتب للأيتام، وقدّرَ للجميع من الخبز واللحم والحلوى والنفقة ما فيه كفاية وافرة لكل واحد، ولما كان يوم الخميس خامس رجب حُضِّرت الدروس بها، وحضر الخليفة المستنصر بالله -بنفسه الكريمة- وأهلُ دَوْلَتِه من الأمراء والوزراء والقضاة والفقهاء والصوفيَّة والشعراء، ولم يَتَخَلَّف أحد من هؤلاء، وعُمِلَ سماط عظيم بها؛ أَكَلَ منه الحاضرون، وحُمِلَ منه إلى سائر دروب بغداد من بيوتات الخواصِّ والعوامِّ، وخُلِعَ[1] على جميع المدرسين بها والحاضرين فيها، وعلى جميع الدولة والفقهاء والمعيدين، وكان يومًا مشهودًا، وأَنْشَدَت الشعراءُ الخليفةَ المدائح الرائقة والقصائد الفائقة، وقد ذكر ذلك ابن الساعي في تاريخه مُطَوَّلاً مبسوطًا شافيًا كافيًا، وقُدِّرَ لتدريس الشافعيَّة بها الإمام محيي الدين أبو عبد الله بن فضلان، وللحنفيَّة الإمام العلامة رشيد الدين أبو حفص عمر بن محمد الفرغاني، وللحنابلة الإمام العالم محيي الدين يوسف بن الشيخ أبي الفرج بن الجوزي، ودَرَّس عنه يومئذ ابنه عبد الرحمن نيابة لغيبته في بعض الرسالات إلى الملوك، ودَرَّس للمالكيَّة يومئذٍ الشيخ الصالح العالم أبو الحسن المغربي المالكي نيابة -أيضًا- حتى يُعَيَّنَ شيخٌ غيره، ووُقِفَتْ خزائن كتب لم يُسْمَعْ بمثلها في كثرتها وحُسْنِ نسخها، وجودة الكتب الموقوفة بها»[2].

وقد كان طلاب العلم في الحضارة الإسلاميَّة يتجشمون عناء السفر، وينفقون الغالي والنفيس في طلب العلم ونيله؛ ولذلك حرص كثير من الأمراء والولاة على إنشاء الأوقاف الدارَّة لطلبةِ العلم؛ لما لهم من مكانة مرموقة في الحضارة الإسلاميَّة، ومن أعجب تلك الأوقاف ما حكاه إمام الحديث الحسن بن سفيان النسوي؛ إذ «خرج يومًا إلى مجلسه الذي كان يُمْلِي فيه الحديث، فقال: اسمعوا ما أقول لكم قبل أن نشرع في الإملاء: قد علمنا إنكم طائفة من أبناء النعم، وأهل الفضل، هجرتم أوطانكم وفارقتم دياركم وأصحابكم في طلب العلم، واستفادة الحديث، فلا يخطرنَّ ببالكم أنكم قضيتم بهذا التجشم للعلم حقًّا، أو أَدَّيْتُم بما تحمَّلْتُم من الكلف والمشقَّة من فروضه فرضًا، فإني أُحَدِّثُكم ببعض ما تحمَّلْتُه في طلب العلم من المشقَّة والجهد، وما كشف الله ﷻ عني وعن أصحابي ببركة العلم، وصفو العقيدة، من الضيق والضنك، اعلموا أَنِّي كنتُ في عنفوان شبابي ارتحلتُ من وطني أطلب العلم واستملاء الحديث، فاتفق حصولي بأقصى المغرب، ودخولي مصر في سبعة نفر من

(1) خلع: أعطاهم أموالاً من خِيار المال، وهي من الخُلْعةُ أي خِيار المال. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادَّة خلع 76/8.

(2) ابن كثير: البداية والنهاية 139/13، 140.

أصحابي طلبة العلم وسامعي الحديث، وكنا نختلف إلى شيخ كان أرفع أهل عصره في العلم منزلة، وأرواهم للحديث وأعلاهم إسنادًا وأصحَّهم رواية، وكان يُملي علينا كل يوم مقدارًا يسيرًا من الحديث؛ حتى طالت المدَّة، وخفَّت النفقة، ودعتنا الضرورة إلى بيع ما صحبنا من ثوب وخرقة، إلى أن لم يبقَ لنا ما نرجو به حصول قوت يوم، وطوينا ثلاثة أيام بلياليهن لم يذُقْ أحد منا فيها شيئًا، وأصبحنا بكرة اليوم الرابع بحيث لا حراك بأحد منًّا من الجوع، وأحوجت الضرورة إلى كشف قناع الحشمة، وبذل الوجه للسؤال، فلم تسمح بذلك أنفسنا، ولم تَطِبْ قلوبنا، وأنف كل واحد منًّا من ذلك، والضرورة تحوج إلى السؤال على كل حال، فوقع اختيار الجماعة على كتبة رقاع بأسمائنا وإرسالها رقعة رقعة في الماء؛ فمن ارتفع اسمه كان هو القائم بالسؤال، واستماحة القوت لنفسه ولجميع أصحابه، فارتفعت الرقعة التي اشتملت على اسمي؛ فتحيَّرْتُ ودُهشت، ولم تسامحني نفسي بالمسألة واحتمال المذلَّة، فعدلت إلى زاوية من المسجد أُصَلِّي ركعتين طويلتين، وأدعو الله سبحانه بأسمائه العظام وكلماته الرفيعة؛ لكشف الضرر، وسياقة الفرج، فلم أخرج من الصلاة حتى دخل المسجد شابٌّ حسنَ الوجهِ، نظيف الثوبِ، طيب الرائحة يتبعه خادم في يده منديل، فقال: من منكم الحسن بن سفيان؟ فرفعتُ رأسي من السجدة، وقلتُ: أنا الحسن بن سفيان، فما الحاجة؟ فقال: إن الأمير ابن طولون صاحبي يُقرئكم السلام والتحيَّة، ويعتذر إليكم من الغفلة عن تفقُّد أحوالكم، والتقصير الواقع في رعاية حقوقكم، وقد بعث بما يكفي نفقة الوقت، وهو زائركم غدًا بنفسه، ومعتذرٌ إليكم بلفظه. ووضع بين يدي كل واحد منا صُرَّة فيها مائة دينار، فتعجَّبْنَا من ذلك، وتحيَّرنا جدًّا، وقلتُ للشاب: ما القصة في هذا؟ فقال: أنا أحد خدم الأمير ابن طولون المختصِّين به، دخلتُ عليه بكرة يومي هذا مسلِّمًا في جملة أصحابي، فقال لي وللقوم: إني أحب أن أخلو يومي هذا، فانصرفوا أنتم إلى منازلكم. فانصرفتُ أنا والقوم، فلما عدتُ إلى منزلي لم يستوِ قعودي حتى أتاني رسول الأمير مسرعًا مستعجلاً يطْلبني حثيثًا، فأجبتُه مسرعًا، فوجدته منفردًا في بيت واضعًا يمينه على خاصرته لوجع ممضٍ اعتراه في داخل حشاه، فقال: أتعرف الحسن بن سفيان وأصحابه؟ فقلتُ: لا. فقال: اقصد المحلَّة الفلانيَّة والمسجد الفلاني، واحمل هذه الصرر وسلِّمها إليه وإلى أصحابه؛ فإنهم منذ ثلاثة أيام جياع بحالة صعبة، ومهِّد عُذري لديهم، وعَرِّفْهم أني صبيحة الغد زائرهم ومعتذر شفاهًا إليهم. فقال الشابُّ: وسألته عن السبب الذي دعاه إلى هذا، فقال: دخلتُ إلى هذا البيت منفردًا على أن أستريح ساعة، فلما هدأت عيني رأيتُ في المنام فارسًا في الهواء متمكِّنًا تمكُّن مَنْ يمشي على بساط الأرض، وبيده

رمح فجعلتُ أنظر إليه متعجِّبًا؛ حتى نزل إلى باب هذا البيت، ووضع سافلة رمحه على خاصرتي وقال: قم أدرك الحسن بن سفيان وأصحابه، قم فأدركهم، قم فأدركهم؛ فإنهم منذ ثلاثة أيام جياع في المسجد الفلاني. فقلتُ له: من أنت؟ فقال: أنا رضوان صاحب الجنة. ومنذ أصابت سافلة رمحه خاصرتي أصابني وجعٌ شديدٌ لا حراك لي معه، فعجِّل إيصال هذا المال إليهم؛ ليزول هذا الوجع عني. قال الحسن: فتعجبنا من ذلك، وشكرنا الله تعالى، وأصلحنا أحوالنا، ولم تَطِبْ نفوسنا بالمقام لئلا يزورنا الأمير، ولئلا تطلعُ الناس على أسرارنا؛ فيكون ذلك سبب ارتفاع اسم، وانبساط جاه، ويتصل ذلك بنوع من الرياء والسمعة؛ فخرجنا تلك الليلة من مصر، وأصبح كل واحد منَّا واحد عصره، وقريع دهره في العلم والفضل، فلما أصبح الأمير ابن طولون جاء لزيارتنا فأُخبر بخروجنا، فأمر بابتياع تلك المحلَّة بأسرها وأوقفها على ذلك المسجد، وعلى مَنْ ينزل به من الغرباء وأهل الفضل وطلبة العلم؛ نفقةً لهم حتى لا تختلَّ أمورهم، ولا يصيبهم من الخلل ما أصابنا؛ وذلك كلّه لقوة الدين وصفو الاعتقاد، والله ﷻ ولي التوفيق»[1].

ومن أهم الأوقاف التي انتشرت في ظلِّ الخلافة العباسيَّة ما ذكره الحافظ ابن عساكر -رحمه الله-؛ إذ ذكر أوقاف الأقنية في دمشق، وهي قنوات مخصَّصة للشرب لها أوقاف معينة لخدمتها وصيانتها وتنظيفها، يعلمها نظار الوقف، وقد ذكر ابن عساكر تسع عشرة قناة موقوفة للسقاية: مثل قناة القلانسيين عند رأس الخواصين، وقناة الزلاقة وقناة الملح عند رأس وطرف الجلادين، وقناة ابن حزور عند باب الخواصين، وغيرها من القنوات الأخرى[2]!

وقد كان الواقفون يحرصون على اختيار أفضل المتولِّين والقَيِّمين لإدارة أوقافهم، ولنا في كتب الفقه أسوة حسنة في الشروط التي وضعها جمهور الفقهاء في اختيار المتولين على ما مرّ بنا؛ ولذلك أدَّت هذه الأوقاف دورها المنوط بها على أكمل وجه؛ إذ تولاَّها الأمناء والمخلصون من أبناء هذه الأمة العريقة؛ ولذلك فإنه مما يستلفت الانتباه أن يُمْتَدَح المتولون ونُظَّار الأوقاف في كتب التراجم والطبقات على تأديتهم الأمانة بحقِّها، فهذا الإمام الذهبي يمتدح الإمام المؤذن أبو صالح أحمد بن عبد الملك الخراساني (ت470هـ)؛ لأنه كان تحت يده أوقاف الكتب والأجزاء الحديثيَّة، فيتعهد حفظها، ويأخذ صدقات التجار والأكابر فيوصلها إلى المستحقِّين[3].

---

(1) ابن الجوزي: المنتظم 6/133-135.

(2) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق 2/379-384.

(3) الذهبي: سير أعلام النبلاء 18/422.

ومن صور الأوقاف الرائعة التي انتشرت في هذا العصر أوقاف الخانات أو الفنادق؛ فلقد عرفت الحضارة الإسلاميَّة نظام الفنادق منذ أيام الإسلام الأولى؛ حيث أشار القرآن الكريم إلى جواز دخول الأماكن العامَّة -ومن جملتها الفنادق- دلالة على واقعيَّة الإسلام واجتماعيته؛ فقال ﷻ: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ﴾[1]، وقد علَّق الإمام الطبري على هذه الآية الكريمة بقوله: «ليس عليكم أيها الناس إثم وحرج أن تدخلوا بيوتًا لا ساكن بها بغير استئذان، ثم اختلفوا في ذلك، أيَّ البيوت عنى؟ فقال بعضهم: عنى بها الخانات والبيوت المبنيَّة بالطرق التي ليس بها سكان معروفون، وإنما بُنيت لمارَّة الطريق والسابلة؛ ليأووا إليها، ويُئووا إليها أمتعتهم»[2].

واللافت للنظر حقًّا أن إنشاء الخانات منذ بواكير هذه الحضارة لَيُؤَكِّد على رُقِيِّ المدنية الإسلاميَّة، واهتمامها بأحوال المسافرين والغرباء، ولمَّا كان ابن السبيل من جملة المستحقِّين لأموال الزكاة، فقد سعت المؤسَّسة الإداريَّـة الإسلاميَّة لتقديم كل ما يلزمه من طعام وشراب وسكنى، فكانت الخانات والفنادق من قبيل المصالح المرسلة التي ابتكرتها الشريعة الإسلاميَّة، وتطبيقًا رائعًا تميَّزت به الحضارة الإسلاميَّة على مدار تاريخها الطويل.

وقد انتشرت الخانات على طول الطرق التجاريَّة بين المدن الإسلاميَّة، وكان أكثر رُوَّادها من التجَّار وطلبة العلم، فكانت هذه الدور تُقَدِّم الضيافة من الطعام والشراب مجَّانًا للفقراء والمساكين وأبناء السبيل، ومن ثَمَّ أُطلق على الخانات التي ظهرت وكانت تُقَدِّم الطعام مجَّانًا دار الضيافة[3].

وقد كانت هذه الخانات بمنزلة المأوى الحقيقي الذي أعدَّته الدولة أو فاعلو الخير للمسافرين، فكانت تحميهم من حرِّ الصيف وبرودة الشتاء، فقد ذكر سعدان بن يزيد -وهو من علماء القرن الثالث الهجري- أنه التجأ إلى أحد الخانات في ليلة مطيرة فيها رعد وبرق وذلك في عام (262هـ)، فوجد الخان قد شُغلت جميع غرفه وأسِرَّته؛ نتيجة البرد الشديد[4].

وقد كانت هذه الخانات مُهَيَّأة بحيث يستطيع طلبة العلم أن يُذَاكروا فيها دون ضوضاء أو ضجيج، فقد ذكر ابن عساكر أن «أبا عمرو الصغير قال: نزلنا بعض الخانات بدمشق

---

(1) (النور: 29).

(2) الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن 151/19.

(3) فؤاد يحيى: جرد أثري لخانات دمشق ص69.

(4) ابن الجوزي: المنتظم 39/5.

قُرب القصر فصلَّيْنَا العصر، ونحن على أن نُبَكِّر إلى أحمد بن عمير، فإذا الخاني (القائم بأعمال الفندق) آتٍ يعدو ويقول: أين أبو عليٍّ الحافظ؟ فقلتُ: ها هنا. فقال: قد حضره الشيخ زائرًا. فغدوتُ فإذا الشيخ راكب على بغلة في الخان، فنزل عن البغلة، وصَعِدَ الغرفة التي نزلنا فيها، وسلَّم على أبي عليٍّ، ورحَّب به، وأظهر الفرح بوروده، وأخذ في المذاكرة معه إلى أن قربت العتمة، ثم قال: يا أبا عليٍّ جمعتَ حديث عبد الله بن دينار؟ فقال أبو عليٍّ: نعم. فقال: أخرجه إليَّ. فأخرجه أبو عليٍّ، فأخذه ووضعه في كفِّه وقام فركب»[1].

وقد تطوَّر أمر الفنادق في الحضارة الإسلاميَّة؛ إذ لم يقتصر قُصَّادها على التجَّار وطلاب العلم، فوجدنا بعض الخلفاء ينزلون بها في أوقات سفرهم؛ فقد نزل الخليفة العباسي المعتضد بفندق الحسين قرب مدينة الإسكندرونة (في تركيا الآن) وذلك في عام (287هـ) أثناء تفقُّده لأحوال الثغور والمدن الشاميَّة[2].

بل اهتمَّ كثير من الخلفاء بتشييد هذه الخانات والفنادق؛ حيث كانت تابعة لإدارة الدولة، يُنْفَقُ من خلالها على المسافرين والفقراء وطلاب العلم، وقد اشتهر الخليفة المستنصر بالله (ت 640هـ) ببنائه لهذه الفنادق، التي كانت تُئوي الفقراء وأبناء السبيل[3].

وقد كانت بعض هذه الخانات تحتوي على قسم خاصٍّ لحفظ الأمانات والأموال، فكانت بمثابة البنك في عصرنا الحاضر، وكان القائمون عليها من الرجال والنساء على السواء، ولم يكن يُسمح بِرَدِّ الأمانات والأموال إلا لأصحابها دون غيرهم، وهذا ما يذكره ابن الجوزي في حوادث عام (571هـ)، إذ قال: «إن رجلاً من التجَّار باع متاعًا له بألف دينار، وأنزل المال في خان أنبار (في بغداد) وجاء إلى بيته وليس معه في الدار إلا مملوك له أسود قد اشتراه قبل ذلك بأيام، فقام المملوك في الليل فضربه بسكين في فؤاده، وأخذ المفتاح ومضى إلى خان أنبار، فطرق باب الخان، فقالت الخانيَّة: من أنت؟ قال: أنا غلام فلان، قد بعث بي لآخذ له شيئًا من الخان. فقالت: والله ما أفتح لك حتى يجيء مولاك. فرجع ليأخذ ما في البيت فاتفق أن حارس الدرب سمع صيحة الرجل وقت أن ضُرِبَ بالسكين، فأمسك الغلام، وبَقِيَ مولاه في الحياة يومين، فوصَّى بقتل الغلام بعده، فصُلِبَ المملوك بالرحبة بعد موت مولاه»[4].

---

(1) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق 115/5.

(2) ابن كثير: البداية والنهاية 635/5.

(3) ابن كثير: البداية والنهاية 186/13.

(4) ابن الجوزي: المنتظم 265/10.

كما تميَّزت بعض هذه الخانات بوجود المطابخ فيها، وقد حرص أصحاب هذه الخانات على استجلاب أفضل الطباخين إليها مقابل أجور محدَّدة، وكان المطبخ يُقَدِّم لكل مسافر يأتي إلى الخان -سواء كان مسلمًا أو غير مسلم، حرًّا أم عبدًا- ثلاث أوقيات من الخبز؛ أي: ما يعادل كيلو جرامًا من الخبز، و250 جرامًا من اللحمة المطهوة، وطبقًا من الطعام، وغير ذلك، فقد ورد في وثيقة وقف خان قره طاي (في عصر السلاجقة): «أن يصرف إلى كل وارد ونازل ومتطرق بالخان المذكور -مسلمًا كان أو كافرًا، ذكرًا أو أنثى، حرًّا كان أو عبدًا- في كل يوم من الخبز الجيد ثلاث أواقٍ، كل أوقية مائة درهم، وقصعة من الطبيخ، مع أوقية لحم من أيِّ طبيخ طُبخ»[1].

إننا لن نستطيع أن نُحْصِيَ ما قَدَّمته الحضارة الإسلاميَّة في العصر العباسي من عشرات الآلاف من الأوقاف النافعة؛ لقد كانت هذه الأوقاف الجندي المجهول أو الذي جُهل عن عمد دوره الكبير في سدِّ الاحتياجات الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة والثقافيَّة والدينيَّة والعلميَّة وغيرها، ولنا فيما سبق أكبر دليل على سبب من أهم الأسباب التي أدَّت إلى عِظَم دور الحضارة الإسلاميَّة في ذلك العصر الزاهر.

روائع الأوقاف في عصر الدولة الزنكية والأيوبية

عُرفت الدولة الزنكيَّة والأيوبيَّة بجهادهما العظيم لصدِّ أعداء الإسلام من الصليبيين وأذنابهم؛ إذ كانت غايتهما توحيد الأُمَّة تحت قيادة واحدة، ومع ذلك لم تَنْسَ هاتان الدولتان دورهما الأساسي في تنظيم شئون المجتمع، وإصلاح شأن الرعيَّة، بل اهتمَّ معظم الأمراء في الدولتين بإنشاء الأوقاف والحضِّ عليها، حتى وجدنا انتشارًا واسعًا لأنواع من الأوقاف كانت قليلة قبل ذلك كالمدارس، والوقف على كتاتيب الأيتام، وغيرها.

فعلى الصعيد العلمي وجدِنا مئات المدارس الموقوفة لطلبة العلم؛ من أجل تحقيق أغراض الواقفين، ورفعة شأن الأُمة الإسلاميَّة في جانبها العلمي، فقد كان في الموصل في العهد الزنكي رُبُط عديدة شاركت في نشاط الحياة العلميَّة في ذلك العهد، حيث كانت مراكز للتعليم والتثقيف والتأليف، ومن الملاحظ هنا أنه لم يفرق بين الخانقاه والرِّباط في الموصل كما حصل في بعض مناطق الشام في ذلك العهد[2]، وكان من أشهر الرُّبُط التي كانت قائمة بالموصل: رباط الملك سيف الدين غازي: أنشأه بالموصل الملك سيف الدين غازي بن عماد

---

(1) فهيم فتحي إبراهيم: الخان في الحضارة العربية الإسلامية على الرابط: www.arabicmagazine.com.
(2) إبراهيم المزيني: الحياة العلمية في العهد الزنكي ص384.

الدين (541-544هـ)، وهو الرباط المجاور لباب المشرعة، وقد أوقف عليه الأوقاف الكثيرة لتفي باحتياجاته[1]. ورباط الوزير جمال الدين الأصفهاني وزير الأمير غازي: يُنسب هذا الرِّبَاط للوزير الموصلي جمال الدين محمد بن علي الأصفهاني المعروف بالجواد المتوفى سنة (559هـ)، وقد ذكر عنه ابن الأثير أنه: بنى الرُّبُط بالموصل، وسنجار، ونصيبين، وغيرها[2].

وتأتي الكتاتيب أو مكاتب الأطفال على قائمة أهم الأوقاف التي أُنشئت في العهد الزنكي؛ فقد نصَّب نور الدين محمود -رحمه الله- جماعة من المعلمين لتعليم يتامى المسلمين، وأجرى الأرزاق على المعلمين وعليهم بقدر ما يكفيهم، ولم يقتصر عمله هذا على عاصمة دولته دمشق؛ إذ امتد هذا التكليف إلى سنجار وحرَّان والرها والرقة ومنبج وشيزر وحماة وحمص وبعلبك وصرخد وتدمر، وغيرها[3].

واللافت أن ابن جبير قد وصف أحد هذه الكتاتيب بقوله: «وللأيتام من الصبيان محضرة كبيرة بالبلد لها وقف كبير، يأخذ منه المعلم لهم ما يقوم به وينفق منه على الصبيان ما يقوم بهم وبكسوتهم؛ وهذا -أيضًا- من أغرب ما يُحَدَّث به من مفاخر هذه البلاد»[4].

ورغم انشغال نور الدين محمود -رحمه الله- بالجهاد؛ إلا أنه لم ينسَ أن يجمع «الكثير من كتب العلوم ووقفها على طلابها، وأقام عليها الحفظة من نقلتها وطلابها وأربابها، وجدَّد كثيرًا من ذي السبيل وهدى بجهده إلى سواء السبيل»[5]، وهذا دليل على اهتمامه بإنشاء المكتبات العامَّة، التي أَوْقَف عليها أوقافًا دارَّة.

وتوسَّع الزنكيون وأمراؤهم وأتابكتهم في إنشاء المدارس الموقوفة؛ فقد كان طلاب العلم ينتقلون عبر مراحل متدرِّجة من الكتاتيب إلى هذه المدارس؛ وكانت هذه المدارس بمثابة جامعات وكليات متخصِّصة في كافَّة أنواع العلوم، فإذا أتمَّ الصبي تعليمه في الكُتَّاب، انتقل إلى المدرسة -إن رغب في مواصلة دراسته وله الجراية المستمرَّة أو النفقة الواسعة إلى أن يُنهي دراسته؛ ومن ذلك ما قام به الأمير مجاهد الدين قَايْمَاز والي القلعة في الموصل المتوفى سنة (595هـ)؛ إذ أنشأ مكتبًا للأيتام بالموصل بجانب مدرسته التي بناها على

---

(1) ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل ص63.

(2) ابن الأثير: الباهر ص129.

(3) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق 121/57.

(4) ابن جبير: رحلة ابن جبير ص245.

(5) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق 121/57.

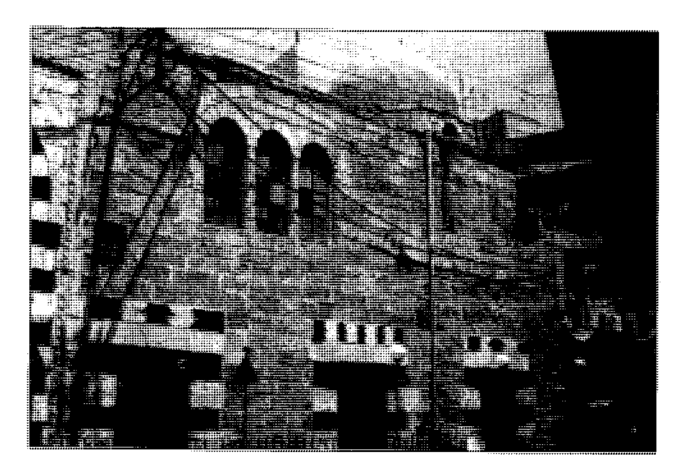
دجلة[1]، وقد شاع ذلك العمل الخيري في كثير من المدن الزنكيَّة؛ حيث وجدت العشرات من الكتاتيب تُنشأ ملاصقة للمدارس أو قريبة منها، وقد قامت تلك الكتاتيب بأثر بارز في تنشئة الأطفال، وتربيتهم تربية إسلاميَّة صحيحة، مع تعليمهم مبادئ القراءة والكتابة وجانبًا من العلوم الإسلاميَّة المُتفقة مع قدراتهم؛ لتكتمل تنشئة الصبية على أسس إسلاميَّة متينة، وهكذا نرى أن للأطفال نصيبًا في المشروع الإسلامي النهضوي الذي قاده نور الدين للتصدِّي للأخطار الباطنيَّة والغزو الخارجي، والسير على نهج الإحياء الإسلامي السُّنِّيِّ الكبير[2].

وتأتي المدرسة النورية في دمشق في مقدمة المدارس التي كان لها دورٌ كبير في المشروع الإصلاحي (صورة رقم 8)، الذي قاده كلٌّ من نور الدين محمود وصلاح الدين يوسف بن أيوب؛ فقد وصفها ابن جبير في رحلته بقوله: «من أحسن مدارس الدنيا مَنْظَرًا مدرسة نور الدين، وهي قصر من القصور الأنيقة، ينصب فيه الماء في شاذروان[3] وسط نهر عظيم»[4]. وكانت مدرسةً كبيرةً جدًّا، فيها قاعة ضخمة للمحاضرات، وغرف للمدرسين وخَدَم المدرسة، وكان يُلحق بها كذلك بيت خاصٌّ يسكنه رئيس المُدَرِّسين وعائلته، هذا كله إضافةً إلى مسجد.

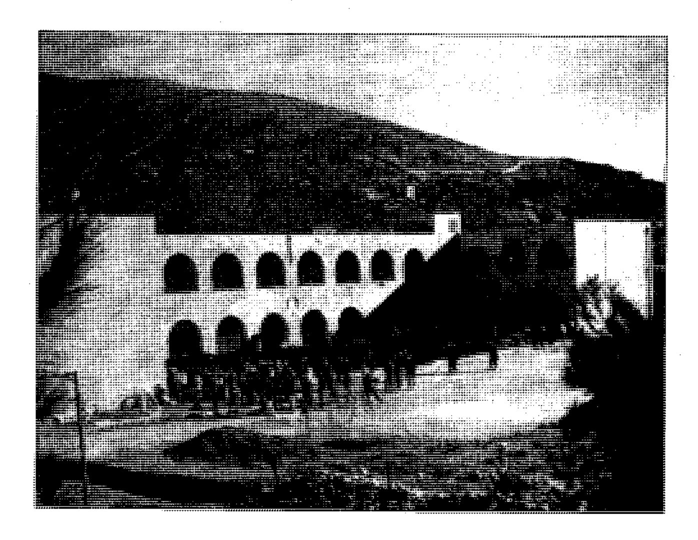
وقد تنافس الأثرياء بعد ذلك في دمشق على وقف الأوقاف الكثيرة لرعاية هذه المدرسة النورية الكبرى، وقد كُتِبَتْ هذه الوقفيات على أحد أبواب المدرسة؛ وكان منها: جميع الحمَّام المستجدِّ بسوق القمح، والحمَّامَيْنِ المستجدَّيْنِ بالورَّاقة خارج باب السلامة، والدار المجاورة لهما، والوراقة بعونية الحمى، وجنينة الوزير، والنصف والربع من بستان الجوزة بالأرزة، والأحد عشر حانوتًا خارج باب الجابية، والساحة الملاصقة لهما من الشرق، والتسعة الحقول بداريا[5].

ومن أشهر السلاطين الذين أَحْيَوْا سُنَّة الوقف العلمي السلطان صلاح الدين الأيوبي؛ فمن أهمِّ وقوفاته في مصر أنه «بنى مدرسة بالقاهرة في جوار المشهد المنسوب إلى الإمام الحسين بن علي رضي الله عنهما، وجعل على ذلك وقفًا جيدًا، ووقف عليها وقفًا طائلاً،

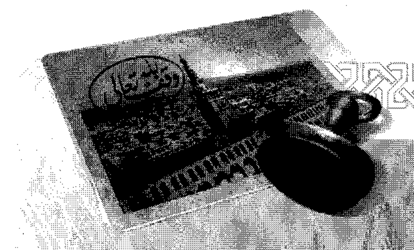
(1) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب 317/4.
(2) علي الصلابي: الدولة الزنكية ص270.
(3) الشاذروان: أساس يُوثق حول القناطر ونحوها، وقيل: هو بناء وثيق عالٍ يقام في صدر الماء سدًّا وثيقًا بالحجر والعمد، فيُرْتَدَعُ به الماء. انظر: محمد بن عبد المنعم الحِميري: الروض المِعطار في خبر الأقطار 225/1.
(4) ابن جبير: رحلة ابن جبير ص256.
(5) مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا ص105.



صورة رقم (8)
المدرسة النورية



صورة رقم (9)
المدرسة الصلاحية



وجعل دار عباس بن السلار مدرسة للحنفيَّة وعليها وقف جيدٌ أيضًا، والمدرسة التي بمصر المعروفة بزين النجار وقفًا على الشافعيَّة وقفًا جيدًا أيضًا، وله بمصر أيضًا مدرسة للمالكيَّة (المدرسة القمحيَّة)»[1].

ومن المدارس الوقفيَّة العظيمة في القدس ما أنشأه الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي -رحمه الله-، حيث أنشأ المدرسة الصلاحيَّة، ووقف عليها خيرًا كثيرًا، وذلك في عام (588هـ) (صورة رقم 9)، وقد اهتمَّت هذه المدرسة بتدريس العلوم الشرعيَّة واللغويَّة والتاريخيَّة، إضافة إلى علوم الحساب والهندسة والفلك والاقتصاد، مع اهتمامها بدراسة الفقه الشافعي، وتقع هذه المدرسة عند باب الأسباط داخل أسوار البلدة القديمة من مدينة القدس الشريف[2].

وكانت كثيرٌ من هذه المدارس تستضيف الطلاب في إقامة كاملة، بل وتعطيهم راتبًا دوريًّا، وهذا أشبه ما يكون بالمنح التي تُقَدِّمُها الآن بعض الجامعات، ومن أظهر الأمثلة على ذلك الجامع الأزهر بالقاهرة، فقد كانت تحيط به من جهاته المتعدِّدَة غرفٌ لسكن الطلاب (المدن الجامعيَّة) تُسَمَّى بالأروقة، يسكنها طلاب كل بلد بجانب واحد؛ فهناك رِوَاق للشاميين، ورواق للمغاربة، ورواق للأتراك، ورواق للسودانيين.. وهكذا، بل ما يزال طلاب الأزهر حتى يومنا هذا يأخذون راتبًا شهريًّا مع دراستهم المجانيَّة من ريع الأوقاف التي أُوقِفَتْ على طلاب العلم بالأزهر.

وحرص أمراء الأيوبيين بعد صلاح الدين على إنشاء المدارس الموقوفة؛ ففي عهد الملك العادل (ت615هـ) نراه يبني مدرسته الشهيرة المنسوبة إليه: المدرسة العادليَّة في دمشق (صورة رقم 10، 11)، وعهدَ الكامل محمد بن أحمد بن أيوب (ت 635هـ) إلى أخيه الملك الأشرف ببناء دار الحديث الأشرفيَّة المجاورة لقلعة دمشق (صورة رقم 12، 13)، وأمدَّه بها العلامة ابن الصلاح بالحديث، وذلك في ليلة النصف من شعبان من عام (629هـ)، ووقف عليها الأشرف الأوقاف، وجعل بها نعل النبي ﷺ[3]، وبنى الملك الصالح نجم الدين أيوب (ت647هـ) المدرسة الصالحيَّة في القاهرة وأوقف عليها الأوقاف الكثيرة (صورة رقم 14)[4].

وعلى صعيد الوقف الصحِّيِّ فقد اهتمَّ الأمير نور الدين محمود -رحمه الله- بإنشاء

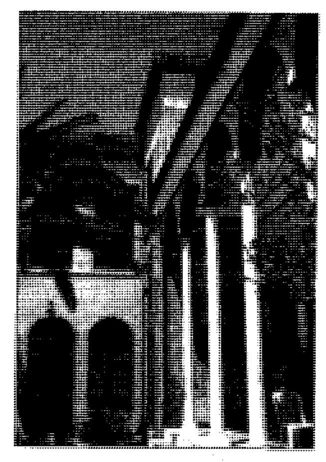
---

(1) اليافعي: مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان 351/3.

(2) انظر: عارف العارف: المفصل في تاريخ القدس 236/1، والمقدسي العسلي: معاهد العلم في بيت المقدس ص63.

(3) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة 208/2.

(4) ابن كثير: البداية والنهاية 210/14.



صورة رقم (10)

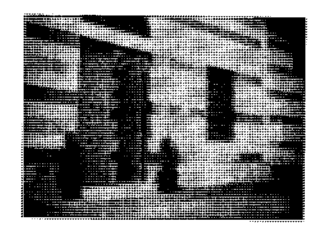


صورة رقم (11)

المدرسة العادلية

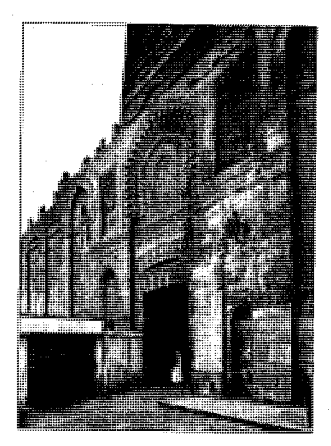


صورة رقم (12)



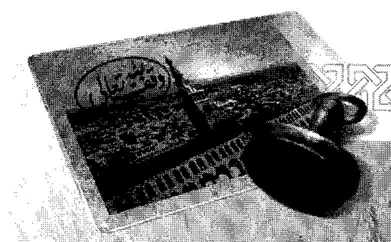
صورة رقم (13)

بناء دار الحديث الأشرفية



صورة رقم (14)

المدرسة الصالحية في القاهرة



مستشفيات خيريَّة في كل المدن التابعة لدولته؛ وقد أوقف عليها ما لا يكاد أن يُحْصَى من الأوقاف، فمن المستشفيات المشهورة في الإسلام المستشفى النوري الكبير الذي أنشأه نور الدين محمود الشهيد بدمشق عام (549هـ) (صورة رقم 15)، وقد وقفه على الفقراء والمساكين فقط، ولا يأخذ منه الأغنياء شيئًا إلا عند الاضطرار لدواء غير موجود، وكان من أحسن المستشفيات في الدنيا، وظلَّ يعمل حتى سنة (1317هـ=1899م)، أي قرابة ثمانمائة سنة[1]!

ومثل هذا المستشفى كان هناك مستشفى آخر بحلب، عُرِفَ بالبيمارستان النوري، وقد أُوقِفَتْ عليه أوقاف كثيرة جداً؛ منها قرية معراتا، ونصف مزرعة وادي العسل من جبل سمعان، وخمسة أفدنة من مزرعة كفر تابا، وثلث مزرعة الخالدي، وطاحون من المطخ، وثمانية أفدنة من مزرعة أبي مرايا، واثنا عشر فدانًا من مزرعة الفرزل من المعرة، وثلث قرية بيت راعيل من العزبيات، وعشرة دكاكين بسوق الهواء، وأحكار ظاهر باب أنطاكية وباب الفرج وباب الجنان[2].

وفي عهد صلاح الدين الأيوبي انتشرت المستشفيات الموقوفة انتشارًا واسعًا: مثل البيمارستان الصلاحي في القاهرة؛ فقد أمر السلطان صلاح الدين بفتح مارستان للمرضى والضعفاء، فاختير مكان بالقصر، وأفرد برسم من جملة الرباع الديوانيَّة مشاهرة مبلغها مائتا دينار وغلَّات جهتها الفيوم، واستخدم له أطباء وكحَّالين وجرائحين وشارفًا وعاملاً وخدَّاماً، ووجد الناس به رفقًا وبه نفعاً[3]. وقد وصف ابن جبير الرحالة المستشفى الذي بناه صلاح الدين في القاهرة فقال بإعجاب شديد: «ومما شاهدناه من مفاخر هذا السلطان المارستان الذي بمدينة القاهرة، وهو قصر من القصور الرائعة حُسْنًا واتساعًا أبرزه لهذه الفضيلة تأجُرًا واحتسابًا، وعَيَّن قَيِّمًا من أهل المعرفة، وضع لديه خزائن العقاقير، ومكَّنه من استعمال الأشربة وإقامتها على اختلاف أنواعها، ووضعت في مقاصير[4] ذلك القصر أسرَّة يتخذها المرضى بكرة وعشيَّة؛ فيقابلون من الأغذية والأشربة بما يليق بهم»[5].

---

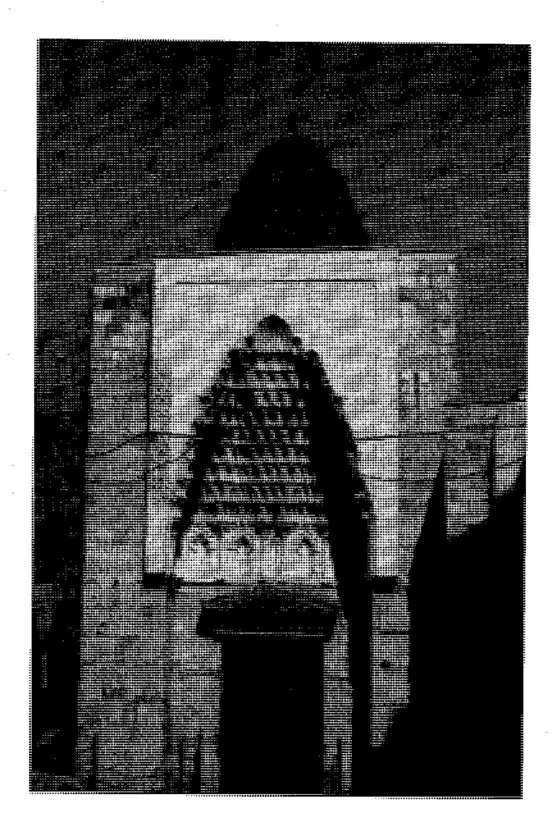
(1) أبو شامة المقدسي: الروضتين في تاريخ الدولة النورية 9/1.

(2) مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا ص105.

(3) عبد الله عبد الرازق: المستشفيات الإسلامية ص236.

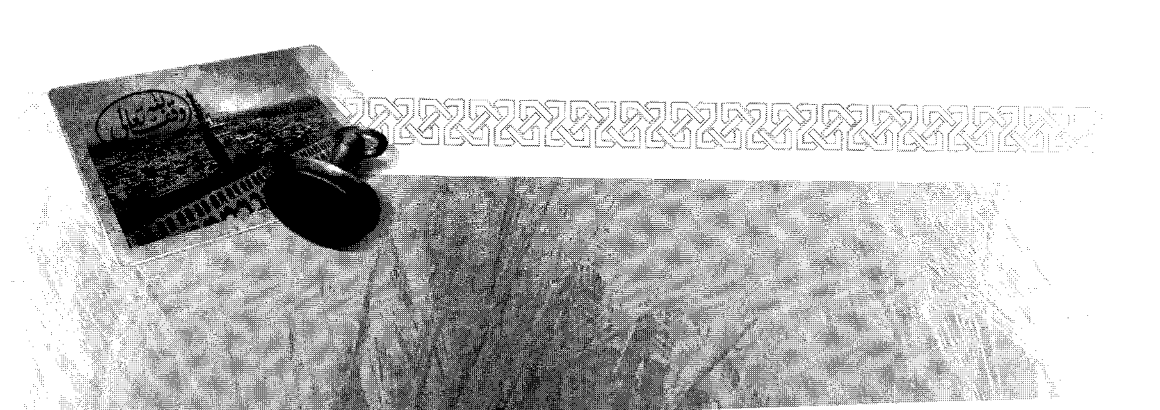
(4) المقاصير جمع المقصورة: وهي حجرة خاصة مفصولة عن الغرف المجاورة فوق الطابق الأرضي، وهي كل ناحية على حيالها من الدار الواسعة المحصنة. ابن منظور: لسان العرب، مادة قصر 95/5، والمعجم الوسيط 739/2.

(5) ابن جبير: رحلة ابن جبير ص25، 26.



صورة رقم (15)

المستشفى النوري بدمشق



وذكر ابن جبير أن هذا البيمارستان قد خُصِّص له قسم للنساء مستقلٌّ عن الرجال، كما خُصِّص له قسم منفصل للمجانين وأصحاب الأمراض النفسيَّة، فقال: «وبإزاء هذا الموضع موضع مقتطع للنساء المرضى، ولهن -أيضًا- مَنْ يكفلهن، ويَتَّصل بالموضعين المذكورين موضع آخر مُتَّسِع الفناء فيه مقاصير عليها شبابيك من الحديد اتُّخِذَتْ مجالس للمجانين، ولهم -أيضًا- مَنْ يتفقَّد كل يوم أحوالهم ويُقابلهم بما يصلح لها، والسلطان يتطلع هذه الأحوال كلها بالبحث والسؤال، ويُؤَكِّد في الاعتناء والمثابرة عليها غاية التأكيد»[1].

ومن الأوقاف المهمَّة التي حرص الزنكيون والأيوبيون على إنشائها نجد الخانات والفنادق؛ فقد نقل أبو شامة في «الروضتين» عن ابن الأثير، أن نور الدين محمود «بنى الخانات في الطرق، فأَمِنَ الناس، وحُفظت أموالهم، وباتوا في الشتاء في كَنٍّ[2] من البرد والمطر»[3] (صورة رقم 16).

وكان اهتمام الزنكيين والأيوبيين بإنشاء هذه الخانات الموقوفة لدواعٍ عديدة؛ منها: الرغبة في تأمين أبناء السبيل والمسافرين، وتوفير الملاجئ الآمنة للتجار، ورعاية من الدولة لطلاب العلم، وكل ذلك هدفه الأجر من الله سبحانه وتعالى.

ولذلك فمما يلفت الانتباه أن بعض النساء قد اهتممن بتشييد الفنادق والخانات؛ رغبة منهن في طلب الأجر والثواب من الله سبحانه وتعالى؛ فقد بَنَتْ عصمة الدين بنت معين الدين أنر زوجة صلاح الدين المتوفاة عام (581هـ) فندق عصمة الدين في مدينة دمشق[4]، كما بنت امرأة أخرى – لم يذكر ابن عساكر اسمها – فندق ابن العنَّازة في دمشق أيضًا[5].

واهتمَّ الأيوبيون ببناء الأسبلة والسقايات الموقوفة في الأماكن البعيدة والقريبة من العمران، وجعلوا كثيرًا منها ملاصقًا للمدارس والجوامع والكتاتيب والمشافي، وأنفقوا كثيرًا من الأموال لجرِّ هذه المياه من البرك والأنهار إلى أماكن الأسبلة؛ فهذا الملك الكامل الأيوبي نراه يجرُّ الماء من بركة الحبش (جنوب حي مصر القديمة) إلى حوض السبيل والسقاية في مدرسة وقبر الإمام الشافعي بالقرافة (شرق القاهرة)، وهي مسافة تُقَدَّر بأربعة كيلو مترات أو أزيد بقليل[6].

---

(1) ابن جبير: رحلة ابن جبير ص25، 26.

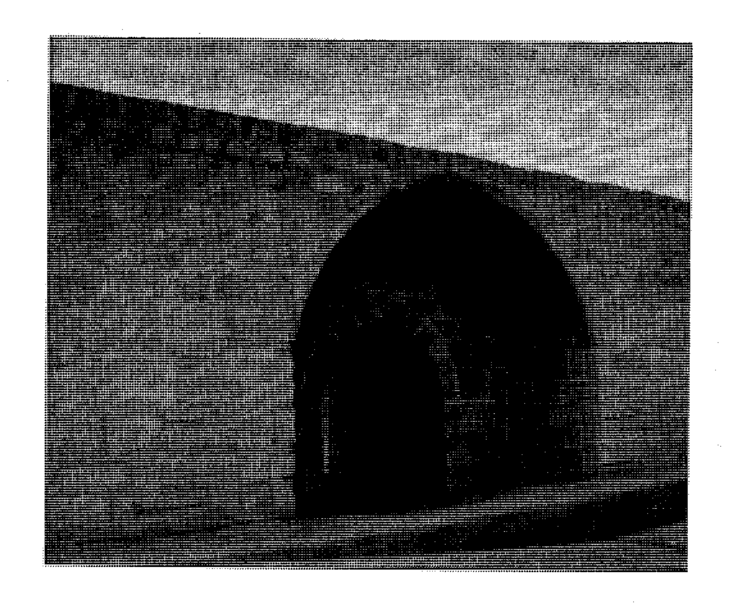
(2) الكِنُّ: وِقاء كل شيءٍ وسِتْرُه، والكِنُّ: البيت، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة كنن 360/13.

(3) أبو شامة: الروضتين ص12.

(4) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب 319/4.

(5) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق 320/2.

(6) الذهبي: تاريخ الإسلام 255/46.



صورة رقم (16)

خان نور الدين محمود



والجميل أنه وُجدت أوقاف لفكاك أسرى المسلمين؛ فقد كان المسلمون في العهد الأيوبي على جهاد ومرابطة دائمة مع الصليبيين، وكان هناك كثير من أسرى المسلمين في يد الإفرنج؛ فحرص كثير من الأمراء وكبار رجال الدولة على إنشاء الأوقاف الدارَّة؛ للإنفاق من ريعها على فكاك أسرى المسلمين؛ فمن أهم هذه الأوقاف: وقف الملك الناصر صلاح الدين -رحمه الله- في مدينة بلبيس في مصر؛ فقد «وقف مُغَلَّ بلبيس على كثرته على فكاك الأسرى منهم؛ وسامح أهل بلبيس بخراجهم إلى آخر أيامه»[1]، ويُعَدُّ وقف القاضي الفاضل -رحمه الله- (ت 596هـ) من أَجَلِّ هذه الأوقاف، فمما رواه ابن شهبة في تاريخه ونقله عنه ابن العماد الحنبلي أن القاضي الفاضل «كان له بمصر رِبْعٌ عظيم يؤجر بمبلغ كثير، فلما عزم على الحج ركب ومرَّ به ووقف وقال: اللهم إنك تعلم أن هذا الربع ليس شيء أحبَّ إلـيَّ منه، اللهم فاشهد أني وقفته على فكاك الأسرى»[2]. فمثل هذه الأوقاف كانت ترجمة عمليَّة لروح الأخوة والمودَّة التي أوجبها الإسلام على أتباعه!!

من غريب الأوقاف وأجملها قصر الفقراء، الذي عمَّره في ربوع دمشق نور الدين محمود زنكي، فإنه لما رأى ذلك المنتزه مقصورًا على الأغنياء، عزَّ عليه ألا يستمتع الفقراء مثلهم بالحياة، فعمر القصر ووقف عليه قرية (داريّا) وهي أعظم ضياع الغوطة وأغناها[3].

وحرص الزنكيون والأيوبيون على إنشاء الخوانق، والخانقاه مكان مخصَّص يتعبَّد فيه الزهاد من الصوفيَّة، وقد أوقفوا على هذه الأماكن الأوقاف الجزيلة؛ فقد شَيد نور الدين في دمشق خانقاه للصوفيَّة، وكانت سياسته تجاههم التقريب؛ لذلك كان قد بنى لهم خانقاهًا كبيراً في مدينة حلب، وقد وصف ابن جبير خانقاه دمشق بقوله: «ومن أعظم ما شاهدناه لهم (الصوفيَّة) موضع يُعرف بالقصر، وهو صرح عظيم، مستقلٌّ في الهواء، في أعلاه مساكن لم يُرَ أجمل إشراقًا منها»[4]، كما عَيَّنَ لهم نور الدين مَنْ ينظر في أمر ربطهم وزواياهم، وأسند هذه المهمة إلى شيخ الشيوخ أبي الفتح عمر بن علي بن حمويه[5].

واهتمَّ الناصر صلاح الدين بن أيوب بإنشاء الخانقاهات؛ إذ جعل دار سعيد السعداء خادم العبيديين خانقًا[6] وكانت بجوار المشهد الحسيني بالقاهرة (صورة رقم 17)، كما أنشأ

(1) أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولة النورية والصلاحية ص182.

(2) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب 326/4.

(3) عبد القادر بدران: منادمة الأطلال ومسامرة الخيال ص404.

(4) ابن جبير: رحلة ابن جبير ص231.

(5) ابن جبير: رحلة ابن جبير ص232.

(6) الخانق: هو الخانقاه بقعةٌ يسكنها أهل الصَّلاة والخير والصوفية. انظر: الزبيدي: تاج العروس، باب القاف مع الخاء 270/25.

الخانقاه الصلاحيَّة بالقدس (صورة رقم 18)، وهو وقف عظيم على الصوفيَّة أوقفه عام (585هـ)[1]، وأوقف والده أيوب بن شاذي خانقاه في مصر عام (566هـ)[2].

ولم يتوقَّف إنشاء هذه الخوانق على الأمراء والولاة؛ فقد حرص كثير من الناس على وقفها؛ مثل ما فعله مجاهد الدين إبراهيم والي دمشق في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب؛ فقد بنى الخانقاه المجاهديَّة في دمشق، فقرَّر فيه عشرين صوفيًّا[3].

وانتشرت الأسبلة في العصر الأيوبي انتشارًا واسعًا، وهي موضع سقاية ووضوء الناس؛ فمن أشهر الأسبلة الموقوفة التي أُنشئت في حرم المسجد الأقصى نجد: سبيل الكأس (صورة رقم 19): يقوم متوضأ الكأس أمام المسجد الأقصى وفي الجهة الجنوبيَّة منه، وهو عبارة عن حوض رخامي مستدير الشكل تتوسطه نافورة تشبه الكأس، ولقد فُتحت بجوانبه صنابير يتدفَّق منها الماء إلى الحوض، ويتمكَّن المصلُّون من الوضوء بسهولة، وفي الفترة الحالية اسْتُحْدِثَت المقاعد الحجريَّة والحماية الحديديَّة المحيطة بالحوض، وفي عهد السلطان سيف الدين أَبو بكر أيوب تمَّ إنشاء هذا المتوضأ، وتاريخ إنشائه يعود إلى (589هـ). وسبيل شعلان (صورة رقم 20): ويقوم هذا السبيل أسفل الدرج الشمالي الغربي المؤدي إلى صحن الصخرة المشرفة، وهو من الصهاريج الأيوبيَّة التي أنشئت في عهد الملك المعظم عيسى سنة (613هـ)، وهذا ما جاء في النقش التذكاري الموجود في مواجهته: «ولقد رمم في العهد المملوكي في عهد السلطان الملك الأشرف برسباي وذلك في سنة (832هـ)»[4]، ولم تَخْلُ مدينة أيوبيَّة من إنشاء الأسبلة والصهاريج والفوَّارات الموقوفة في المساجد والطرقات العامَّة والأزقة وغيرها، فضلاً عن حفر الآبار في الصحاري والفيافي القاحلة.

ومن الأوقاف التي ترسم لنا ملامح الرحمة والرأفة في ذلك العصر ما قام به صلاح الدين -رحمه الله-؛ فقد أنشأ وقفًا لإنشاء ميزاب يسيلُ منه الحليب في إحدى القلاع بدمشق، كما جعل ميزابًا آخر يسيل منه الماء المذاب فيه السكر، وتأتي الأمهات إليه يومين في الأسبوع؛ ليأخذن منهما ما يحتجن إليه من الحليب والسكر[5].

إن اهتمام الدولة الزنكيَّة والأيوبيَّة بإنشاء هذه الأوقاف المتنوِّعة لدليل لا مشاحة فيه

---

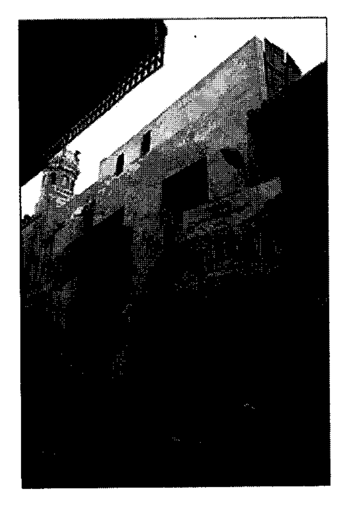
(1) العليمي: الأنس الجليل 47/2.

(2) ابن كثير: البداية والنهاية 337/12.

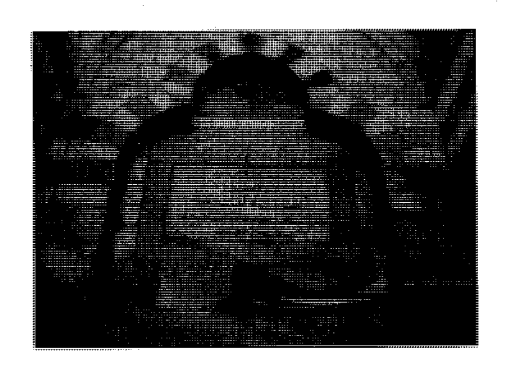
(3) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس 132/2.

(4) شوقي شعث: مقال بعنوان: «العمارة الإسلامية بفلسطين في العصر الأيوبي»، مجلة التاريخ العربي.

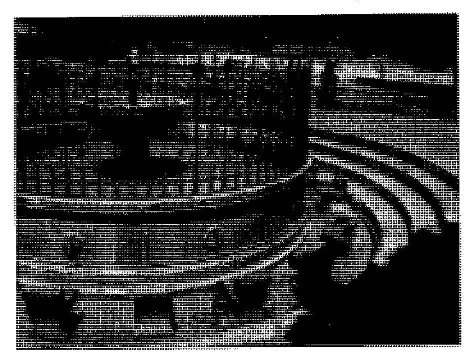
(5) انظر: مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا ص98، 99.



صورة رقم (17)
دار سعيد السعداء



صورة رقم (18)
الخانقاه الصلاحية بالقدس



صورة رقم (19)
سبيل الكأس



صورة رقم (20)
سبيل شعلان



على علوِّ المنزلة، وسموِّ المكانة التي نالتها هاتان الدولتان في تاريخ الإسلام خاصَّة في العهد النوري والصلاحي؛ كما أنه امتداد رائع لحضارة الإسلام المجيد، التي اهتمَّت بكافَّة الخدمات التي احتاجها العامَّة والخاصَّة في تلك الآونة الزاهرة.

روائع الأوقاف في المغرب والأندلس

رغم البعد النسبي لهذين الإقليمين عن المشرق الإسلامي، إلا أن الرابطة الإسلاميَّة القويَّة جعلت الأمراء والسلاطين والأغنياء وفاعلي الخير يُكثرون بل ويتفنَّنون في إنشاء الأوقاف المتنوِّعة؛ وقد حرصت مؤسَّسة الحكم في هذين الإقليمين على المحافظة على هذه الأوقاف واستثمارها بما يخدم العين الموقوفة والموقوف عليهم.

ورغم الاستقلال المبكِّر لإقليم المغرب العربي منذ عام (184هـ)؛ حينما ولَّى هارونُ الرشيد إبراهيمَ بن الأغلب التميمي ولاية إفريقية، وكذلك استقرار واستقلال بني أميَّة بالأندلس منذ دخول عبد الرحمن بن معاوية الداخل عام (138هـ) -إلا أن ذلك لم يَحُلْ أمام إقامة حضارتين عريقتين في هذين الإقليمين الجليلين في غرب الخلافة العباسيَّة؛ ولقد كانت الأوقاف أو الأحباس -كما اعتاد أهل المغرب والأندلس على تلك التسمية- من أروع ما خلفته هاتان الحضارتان؛ ولا نستغرب حينما نعلم أن الأوربيين في قرونهم الوسطى كانوا يَرَوْنَ أهل الأندلس وخلفاءهم من أعرق الأمم الإنسانيَّة على الإطلاق، وكان حلم الكثيرين منهم أن يرتحلوا إلى الأندلس؛ رغبة في تلقي العلم، أو لتحسين وضعهم المعيشي والاجتماعي؛ كما هو الحال عند كثير من أبناء بلاد الإسلام الذين يرغبون بكل ما أوتوا من قوَّة أن يرحلوا إلى أوربا وأمريكا!

ومهما يكن من أمرٍ فقد أسهمت هذه الأوقاف في صنع الحضارة الإسلاميَّة في المغرب والأندلس، ولم يكن يضارعها إلا إنفاق الدولة من بيت المال والخزانة العامَّة على المشاريع التنمويَّة الكبرى، ونلاحظ أن أوقاف الجهاد غلبت على معظم الأوقاف الأخرى في القرون الثلاثة الأولى من الهجرة؛ فكثر إنشاء الرباطات والقواعد، وكانت السمة الغالبة على هذه الأوقاف أنها خاصَّة، أي أن عامَّة المسلمين هم من أوقفوها، ويبدو ذلك منطقيًّا؛ إذ الجهاد كان الهدف الرئيس للخلافة الإسلاميَّة والدول المستقلَّة حينئذ؛ فنجد أن رباط تازا في المغرب الأقصى كان من جملة الرباطات المهمة، التي أوقف عليها مؤسِّس دولة الأدارسة إدريس بن عبد الله (ت175هـ)، وكان هذا الرباط منطلَقًا للعمليات العسكريَّة

والجهاد في تلك المناطق[1]. وكان قصر الطوب -وهو موضع بجوار مدينة سوسة في تونس- من أهم مناطق رباط دولة الأغالبة، وقد أوقفوه على الزهاد والعباد وكذلك منطلقًا للجهاد، وكان من أشهر الزهاد فيه رجل يُدْعَى ابن يونس، فإنه لما تُوُفِّيَ خرج معظم أهل مدينة تونس في جنازته[2]!

وفي الأندلس لم تتوقَّف العمليات العسكريَّة مع الصليبيين لمدد طويلة، فكان أهل الثغور في الأندلس على رباط دائم، وجهاد مستمرٍّ، ومناوشات لا تنقطع؛ ومن ثَمَّ حرص خلفاء بني أميَّة على وقف الأوقاف الجزيلة على أهل هذه الثغور، ومن أروع هذه الأوقاف وقف الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر (ت 366هـ)؛ فقد أوقف عليهم جميع كور الأندلس «تُفَرق عليهم غلَّات هذه الضياع عاماً بعد عام على ضعفائهم إلا أن تكون بقرطبة مجاعة، فتُفَرَّق فيهم إلى أن يجبرهم الله»[3]!

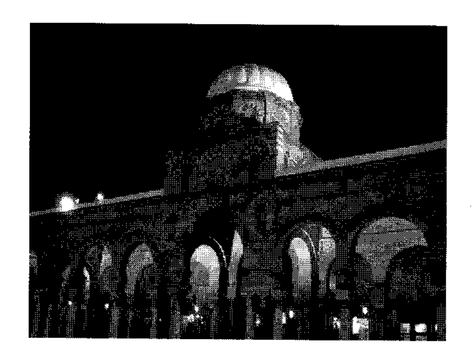
ولقد كان إنشاء المساجد من أَجَلِّ الأوقاف التي انتشرت مع انتشار الإسلام في المغرب والأندلس شأنها شأن بقية بقاع العالم الإسلامي، فكما أنشأ عقبة بن نافع جامعه الشهير في القيروان في القرن الأول الهجري (صورة رقم 21 ، 22)؛ فقد أنشأ كلٌّ من موسى بن نصير وطارق بن زياد ومن خلفهم من أمراء الدول التي تتابعت على المغرب والأندلس حتى الخلافة العثمانيَّة؛ واللافت أن بناء هذه المساجد لم يكن حكرًا على مؤسَّسة الحكم أو الأغنياء والميسورين من رجال هذه الأُمَّة، بل اشتركت النساء بنصيب وافر في هذه الأوقاف العظيمة؛ فقد أنشأت السيدة فَاطمة بنت محمد بن عبد الله الفهري جامع القرويين بفاس في المغرب الأقصى عام (245هـ)، وأوقفت عليه الأوقاف الدارَّة، ثم وسع المسجدَ الأميرُ عبد الرحمن الناصر في عام (345هـ) وحبس عليه الأحباس (صورة رقم 23، 24)، وعَيَّن لها قيمًا كان له مكان معلوم في مقصورة المسجد؛ ودعت وفرة الأحباس والأموال الموقوفة على هذا المسجد لإنشاء مستودع أيام الفقيه أبي عبد الله الجورائي (ت598هـ)[4].

وعلى الجانب الآخر في الأندلس -وفي ظِلِّ حكم الأمويين هناك- انتشرت الأوقاف بصورة لافتة، وخاصَّة أوقاف المساجد؛ فالخليفة الأموي عبد الرحمن الداخل شرع منذ

(1) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب 84/1.
(2) ابن عذارى: البيان المغرب 171/1.
(3) ابن عذارى: البيان المغرب 234/2.
(4) عبد الهادي التازي: جامع القرويين 56/1، 75.

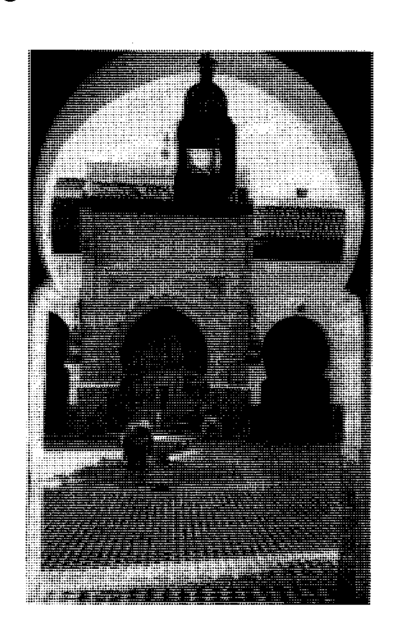


صورة رقم (21)

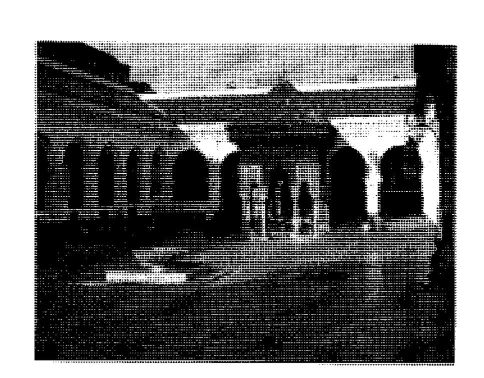


صورة رقم (22)

جامع عقبة بن نافع



صورة رقم (24)



صورة رقم (23)

جامع القرويين بفاس



قيام الدولة الأمويَّة في الأندلس بإنشاء المسجد الجامع في قرطبة ، وقد أنفق فيه ثمانين ألف دينار ، وتُوُفِّيَ قبل أن يتمَّه ، وقد أكمل ابنه هشام بناءه بعد ذلك[1].

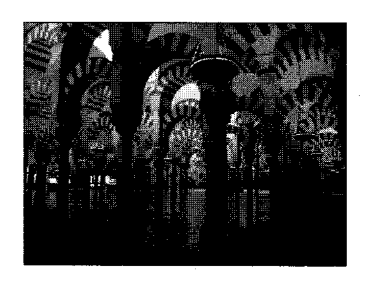
واهتمَّ أبو المطرف عبد الرحمن بن الحكم (ت238هـ) بإنشاء الجوامع في مختلَف أرجاء الأندلس ، وكان من أكبرها وأجملها المسجد الجامع في إشبيلية[2] (صورة رقم 25) ، ويُعَدُّ وقف الحكم بن عبد الرحمن الناصر على المسجد الجامع بقرطبة من أعظم الأوقاف التي ذكرتها المصادر الأندلسيَّة؛ ففي عهده توسَّعت قرطبة وازداد عدد الناس بها ، فدعت الحاجة إلى الزيادة في المسجد الجامع ، وبعد الانتهاء من الزيادة أمر بوقف جليل عليه ، كان هذا الوقف ربع ثروته التي ورثها عن أبيه الناصر[3] (صورة رقم 26 ، 27)!!

ووصلت الأوقاف ذروتها في الأندلس في عهد الحكم بن عبد الرحمن الناصر؛ حيث اهتمَّ بإنشاء الأوقاف بكافَّة أنواعها ، وعلى رأسها ما يسدُّ حاجات المجتمع الضروريَّة؛ فأنشأ أوقاف المياه ، وشقَّ القنوات لجلبها من المناطق البعيدة؛ ففي عام (356هـ) «أجرى الماء إلى سقايات الجامع (بقرطبة) والميضأتين اللتين مع جانبيه: شرقيه وغربيه ، ماءً عذبًا جلبه من عين بجبل قرطبة ، خرق له الأرض ، وأجراه في قناة من حجر متقنة البناء ، محكمة الهندسة ، أودع جوفها أنابيب الرصاص لتحفظه من كل دنس»[4].

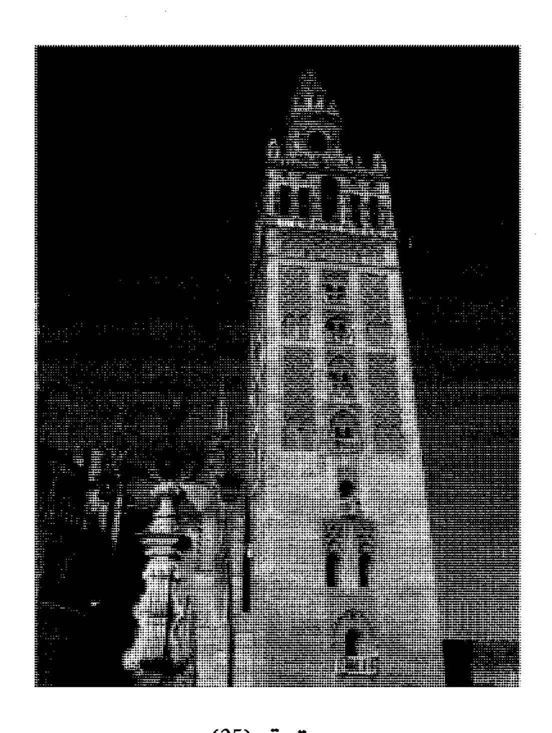
واهتمَّ الحَكم –رحمه الله– بإنشاء مكاتب موقوفة لتعليم أبناء المسلمين؛ وكانت هذه المكاتب مختصة بتعليم القراءة والكتابة ، وحفظ القرآن الكريم ، ودراسة منهج لا بأس به من السُّنَّة والسيرة النبويَّة ، ومن ثَمَّ اتخذ الحكم «المؤدبين لتعليم أولاد الضعفاء والمساكين القرآن حوالي المسجد الجامع ، وبكل ربض من أرباض قرطبة؛ وأجرى عليهم المرتبات ، وعهد إليهم في الاجتهاد والنصح ، ابتغاء وجه الله العظيم؛ وعدد هذه المكاتب سبعة وعشرون مكتبًا؛ منها حوالي المسجد الجامع ثلاثة ، وباقيها في كل ربض من أرباض المدينة»[5] ، أي: إن قرطبة وحدها حوت 27 مدرسة متطوِّرة لتعليم أبناء المسلمين بالمجَّان ، وكان المعلمون في رغد من العيش ، ومن ثم خرَّجت لنا قرطبة عشرات العلماء في كل العلوم والفنون في العصر الأموي الزاهر.

---

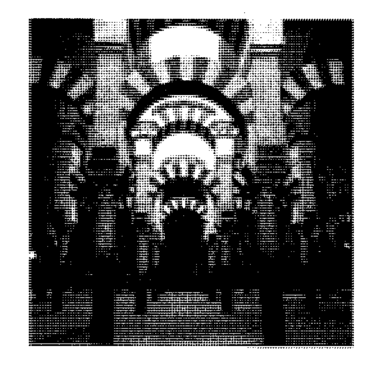
(1) المقري: نفح الطيب 338/1.
(2) ابن سعيد المغربي: المغرب في حُلى المغرب ص45.
(3) ابن عذارى: البيان المغرب 234/2.
(4) ابن عذارى: البيان المغرب 235/2.
(5) ابن عذارى: البيان المغرب 236/2.



صورة رقم (26)



صورة رقم (25)
المسجد الجامع في إشبيلية
وقد تحولت مئذنته إلى صليب كنيسة



صورة رقم (27)
المسجد الجامع في قرطبة



واللافت أن هؤلاء المؤدِّبين عُدَّ كثيرٌ منهم من العلماء الراسخين، وكُتب تراجم الأندلسيين زاخرة بهذا الأمر، فكتاب «تاريخ علماء الأندلس» لابن الفرضي يذكر وحده تسعة وعشرين عالمًا في مختلَف العلوم، كانوا مؤدِّبين (معلمين) في كتاتيب الأطفال؛ مما يرسم لنا صورة صادقة عن ثقافة المجتمع الأندلسي الراقية آنئذٍ!

كما بُنيت المدارس في المغرب والأندلس، وأوقف عليها الأمراء والولاة والتجَّار الأوقاف الجزيلة، فقد بنى المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن مدرسة الجوفية في مدينة سلا بالمغرب الأقصى في عام (593هـ)[1].

واللافت أن شروط الصلح مع الصليبيين في الأندلس والمغرب كانت تنصُّ على ردِّ كل الكتب التي استولَوْا عليها بطريق الغصب والسرقة، ووقفها على المدارس الكبرى في حواضر المغرب والأندلس، وهذا ما حدث بين سلطان بني مرين يعقوب بن عبد الحق وبين طاغية الروم «سانجة»، فبعد انتصار المسلمين على الصليبيين في كثير من مدن الأندلس -التي استولَوْا عليها عام (684هـ)- تَمَّ الصلح بين الطرفين، وكان أحد أهم هذه الشروط: «أن يبعث إليه بكُتب العلم التي بأيدي النصارى منذ استيلائهم على مدن الإسلام، فبعث إليه منها ثلاثة عشر حملاً، فيها جملة من مصاحف القرآن الكريم وتفاسيره؛ كابن عطية والثعلبي، ومن كتب الحديث وشروحاتها؛ كالتهذيب، والاستذكار، ومن كتب الأصول والفروع واللغة العربيَّة والأدب.. وغير ذلك، فأمر السلطان -رحمه الله- بحملها إلى فاس وتحبيسها على المدرسة التي أسَّسها بها لطلبة العلم»[2].

ويبدو أن الدولة المرينيَّة كانت مهتمة بإنشاء المدارس الموقوفة والمكتبات؛ ولذلك عَلَّق الناصري على مجهودات سلاطين بني مرين في هذا المجال بقوله: «قد تَقَدَّم لنا أن السلطان يعقوب بن عبد الحق -رحمه الله- كان قد بنى مدرسته التي بفاس مع غيرها مما سبق التنبيه عليه، ووقف عليها كتب العلم التي بعث بها إليه الطاغية سانجة عند عقد الصلح معه، ووقف عليها غير ذلك واقتفى أثره في هذه المنقبة الشريفة بنوه من بعده؛ فاستكثروا من بناء المدارس العلميَّة والزوايا والربط، ووقفوا عليها الأوقاف المغلَّة، وأجْرَوْا على الطلبة بها الجرايات الكافية، فأمسكوا بسبب ذلك من رمق العلم، وأحيوا مراسمه، وأخذوا بضبعيه جزاهم الله عن نيتهم الصالحة خيرًا»[3].

---

(1) الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى 195/2.

(2) الناصري: الاستقصا 64/2.

(3) الناصري: الاستقصا 111/3.

واهتمَّ الأندلسيون بوقف المدارس وإنشائها؛ ولكن إنشاء المدارس ذات التعليم العالي لم يتم إلا منذ القرن السابع الهجري، غير أن حلقات كبار الشيوخ كانت في المساجد، فضلاً عن وجود مدارس ابتدائيَّة وُجدت منذ الخلافة الأمويَّة؛ هذه الحلق والمدارس الابتدائيَّة كان لها دور عظيم في التعليم منذ القرن الثاني الهجري، وبدأت المدارس العالية في الانتشار بعد ذلك؛ ففي غرناطة أوقف رضوان حاجب الدولة النصرية (ت 760هـ) أول مدرسة بها، «ولم تكن بها بَعْدُ، وسَبَّب إليها الفوائد، ووقف عليها الرباع المغلَّة، وانفرد بمَنْقبها[1]، فجاءت نسيجة وحدها بهجة وصدرًا وظرفًا وفخامة، وجلب الماء الكثير إليها من النهر، فأبَّد سقْيَه عليها»[2].

وقد اهتمَّ علماء الأندلس والمغرب بوقف كُتبهم على طلبة العلم شأنهم في ذلك شأن علماء الحضارة الإسلاميَّة في المشرق؛ فهذا عالم قرطبة قاسم بن سعدان (ت347هـ) يحبس كتبه على طلبة العلم في مكتبة محمد بن محمد بن أبي دُلَيم[3]، ومثل ذلك ما فعله علامة طليطلة محمد بن حُيون بن عمران الأنصاري (ت346هـ) الذي وقف كتبه عند صديقه أبي عَبْدالله بن مُفَرِّج[4]، وغير هؤلاء كثير.

وكان جامع عقبة بن نافع الفهري -رحمه الله- في القيروان بمثابة جامعة إسلاميَّة متطوِّرة بجوار كونه مسجداً؛ ولذلك أوقف كثير من كبار أعلام تونس كتبهم عليه؛ مثل تحبيس الإمام أبي القاسم عبد الخالق بن عبد الوارث السيوري المتوفى سنة (462هـ)، وقد حبس الإمام قاسم بن عيسى بن ناجي (ت 839هـ) كتبه -بعضها من تأليفه- على طلبة العلم بمدينة القيروان، فينسخون منها إن احتاجوا إلى ذلك، وجعل النظر فيها وصرفها لمن يقرأ فيها على يديه مدَّة حياته؛ ووقفت بعد وفاته في الجامع الأعظم[5].

وقد حدَّثنا الرحالة العبدري المغربي عن زيارته لجامع عقبة في مدينة القيروان، وكان ذلك في عام (688هـ)؛ فكان مما لفت انتباهه مكتبة المسجد التي حوت من النوادر والمصادر الموقوفة ما لم يُوجد في غيره؛ فقال: «دخلنا بيت الكتب (في الجامع)، فأُخرجت لنا مصاحف كثيرة بخطٍّ مشرقي، ومنها ما كُتب كله بالذهب، وفيها كتب محبسة قديمة من عهد سحنون (أواخر القرن الثاني الهجري)، وقبله، منها موطأ ابن القاسم وغيره...»[6].

(1) بمنقبها: أي بفضلها ومأثرتها.
(2) ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة 511/1.
(3) الأزدي: تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس 409/1.
(4) ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس 728/2.
(5) محمد أبو الأجفان: الوقف على المسجد في المغرب والأندلس وأثره في التنمية والتوزيع ص312.
(6) العبدري: الرحلة ص65.

وظهرت أوقاف عظيمة أخرى في الأندلس والمغرب؛ فمن أهمها أوقاف القناطر والجسور، وهي من أهمِّ الأوقاف الخدميَّة في تلك البلاد؛ إذ كثرة الأنهار فيها قد تعوق الناس عن سعيهم وإعمارهم في الأرض؛ ولذلك حرص الأمراء والولاة على إنشاء هذه القناطر والجسور؛ فقد اهتمَّ بنو أميَّة في الأندلس ببناء القناطر والجسور؛ وكانت قنطرة هشام بن عبد الرحمن بن معاوية (ت180هـ) من أكبر القناطر وأعظمها في الأندلس؛ إذ «أَنفق في إصلاحها أموالاً عظيمة، وتولَّى بناءها بنفسه، وتُعطى الأجرة بين يديه... ولما بنى هشام القنطرة، تكلَّم بعض الناس فيه، وقالوا: إنما بناها لتصيُّده ونُزهته! فحلف حين بلغه ذلك ألا يجوز عليها إلا لغزو أو مصلحة»[1]، وتأتي قنطرة المنصور بن أبي عامر في قرطبة من أهم قناطر الأندلس التي بقيت حتى يومنا هذا؛ فقد استمرَّ البناء فيها عامين كاملين من عام (387هـ) إلى عام (389هـ)، أنفق عليها المنصور مائة وأربعين ألف دينار كاملة؛ وكذلك قنطرة إستجة؛ فقد «تجشَّم لها أعظم مؤنة، وسهَّل الطرق الوعرة والشعاب الصعبة»[2].

ولا ننسَ روائع الأوقاف الصحيَّة في المغرب والأندلس؛ فمنها ما قام به الأمير الموحدي يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن (ت 594هـ) ببناء بيمارستان مَراكُش، فلقد كان هذا المشفى من أجمل وأفضل المشافي في المغرب الأقصى على الإطلاق، ولم يُبْنَ في وقته مثله، حتى إن المؤرخ المرَّاكُشِيَّ قد وصفه بقوله: «وبنى (يعقوب بن يوسف) بمدينة مَراكُش بيمارستانًا ما أظن أن في الدنيا مثله؛ وذلك أنه تخيَّر ساحة فسيحة بأعدل موضع في البلد، وأمر البنائين بإتقانه على أحسن الوجوه، فأتقنوا فيه من النقوش البديعة والزخاريف المحكمة ما زاد على الاقتراح، وأمر أن يُغرس فيه مع ذلك من جميع الأشجار المشمومات والمأكولات، وأجرى فيه مياهًا كثيرة -تدور على جميع البيوت- زيادة على أربع برك في وسطه، إحداها رخام أبيض، ثم أمر له من الفُرش النفيسة -من أنواع الصوف والكتان والحرير والأديم وغيره- بما يزيد على الوصف ويأتي فوق النعت، وأجرى له ثلاثين دينارًا في كل يوم برسم الطعام، وما ينفق عليه خاصَّة، خارجًا عما جلب إليه من الأدوية، وأقام فيه من الصيادلة لعمل الأشربة والأدهان والأكحال، وأعدَّ فيه للمرضى ثيابَ ليلٍ ونهار للنوم من جهاز الصيف والشتاء، فإذا نقه المريض، فإن كان فقيرًا أمر له عند خروجه بمال يعيش به ريثما يستقلُّ، وإنْ كان غنيًّا دفع إليه ماله، وتُركَ وسَبَبَه؛ ولم يقصره على الفقراء دون الأغنياء، بل كل مَنْ مرض بمَرَّاكُش من غريبٍ حُملَ إليه، وعولج إلى أن يستريح أو يموت، وكان في كل جمعة بعد صلاته يركب ويدخله؛ يَعود

(1) ابن عذارى: البيان المغرب 66/2.

(2) ابن عذارى: البيان المغرب 288/2.

المرضى، ويسأل عن أهل بيت يقول: كيف حالكم؟ وكيف القَوَمة عليكم؟ إلى غير ذلك من السؤال ثم يخرج، ولم يزل مستمرًّا على هذا إلى أن مات -رحمه الله-»[1].

وفي القرن الثامن الهجري بنــى ملـك بني نصر في غرناطة الغني بالله محمد بن يوسف الأنصاري (ت793هـ) بيمارستانه العظيم بها، وكان أول بيمارستان موقوف يُنشأ فيها منذ الفتح الإسـلامي؛ وقد عهد إلى وزيره الشهير لسان الدين بن الخطيب (ت777هـ) ببنائه؛ فكان من أجمل بيمارستانات المسلمين في الأندلس؛ من حيث السعة والهدوء والإنفاق والنظافة، فضلاً عن المناظر الطبيعيَّة الخلابة؛ وقد وصفه ابن الخطيب بقوله: «ومن مواقف الصِّدْق والإحسـان... بناء المارسـتان الأعظـم حسنةُ هذه التخوم القُصوى (يقصد غرناطة) ومزيَّةُ المدينة الفُضْلَى. لم يهتد إليه غيرُه من الفتح الأول، مع توفُّر الضرورة، وظهور الحاجة، فأغرى به همَّةُ الدِّين، ونفسُ التقوى... فخامة بَيْت، وتعدُّد مساكن، ورحْبَ ساحة، ودرُور مياه، وصحَّة هواء، وتعدّد خزاين ومتوضآت، وانطلاق جراية وحسن ترتيب، أبَرَّ على مارستان مصر، بالساحة العريضة، والأهوية الطيبة، وتَدَفُّق المياه من فورات المرمل، وأسُود الصخر، وتموُّج البحر، وانسدال الأشجار»[2].

هذا، ولم يتوقَّف إنشاء الأوقاف في المغرب والأندلس على الوجوه المعتادة؛ كالنواحي الصحيَّة أو الدينيَّة؛ مثل: الرباطات والمستشفيات والمدارس.. وغيرها؛ حيث وُجدت أوقاف أخرى سدَّت احتياجات المجتمع المغاربي والأندلسي؛ ففي تونس وُجد وقف لختان أولاد الفقراء، يُختَن الولد ويُعطى كسوة ودراهم، وهناك وقف تُوَزَّع منه الحلواء في شهر رمضان مجَّانًا، ويأتي إلى تونس في بعض أيام السَّنَة نوع من السمك، تفيض به شواطئها؛ ولذلك كان هناك وقف يُشترى من ريعه جانب كبير من هذا السمك، ويُوَزَّع على الفقراء مجَّانًا، وكان فيها وقف لمن وقع عليه زيت مصباح، أو تلوَّث ثوبه بشيء آخر، يذهب إلى هذا الوقف، ويأخذ منه ما يشتري به ثوبًا آخر[3].

والأغرب من ذلك، أنه كان بمدينة مَراكُش بالمغرب، مؤسسة وقفيَّة تُسمى «دار الدُّقة»[4]، وهي ملجأ تذهب إليه النساء اللاتي يقع بينهن وبين أزواجهن نفور وبغضاء، فلهن أن يُقِمْنَ آكلات شاربات إلى أن يزول ما بينهن وبين أزواجهن من نفور[5]!

---

(1) المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص364، 365.

(2) ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة 50/2، 51.

(3) شوقي أبو خليل: الحضارة العربية الإسلامية ص336، 337.

(4) دار الدقة: المقصود بها الدار التي تَدُقُّ على يد الزوج الظالم المسيء في معاملته إلى زوجه، حتى توقفه عند حدِّه.

(5) شوقي أبو خليل: الحضارة العربية الإسلامية ص336، 337.

هذه هي بعضٌ من روائع الأوقاف الإسلاميَّة التي وُجدت في المغرب والأندلس؛ وهي دليل لا غبار عليه على مدى التقدُّم الإنساني الذي وصل إليه هذان الإقليمان العظيمان؛ ولقد ظَلَّت الأوقاف تُؤَدِّي الغاية منها في الأندلس حتى سقطت، فاستولى النصارى عليها كما استوْلَوْا على الأندلس كلها، وبقيت كثير من الآثار شاهدة على روعة هذه الأوقاف في بلدان المغرب الإسلامي.

روائع الأوقاف في عصر الدولة المملوكية

لا يزال قارئ التاريخ المملوكي في حيرة من أمره؛ لِمَا يقرؤه بل ويراه من الآثار المملوكيَّة التي ظَلَّتْ ماثلة للعيان؛ فأغلب هذه الآثار هي في حقيقة الأمر أوقاف لله ﷻ من مساجد ومدارس وتكايا وخوانق ومستشفيات وغيرها؛ ويعجب القارئ للكمِّ الهائل من الأموال التي أُنْفِقَتْ على هذه الأوقاف؛ رغم الأحداث السياسيَّة والاقتصاديَّة التي شهدتها المناطق الواقعة تحت سيطرة الدولة المملوكيَّة، لكن ذلك لا يُقَلِّلُ من هذه الأوقاف الرائعة، التي ساهمت بصورة قويَّة في نجدة المجتمع الإسلامي في العصر المملوكي من أزمات اقتصاديَّة وثقافيَّة وفكريَّة طاحنة، بل كانت دِعامة قويَّة في تَقَدُّم الدولة ونهضتها.

فعلى الصعيد الاجتماعي وجدنا وقف الأسبلة والرباطات والتكايا، ووقوف أخرى على الفقراء والمساكين كان لها أكبر الأثر في التكافل الاجتماعي في تلك العصور الزاهرة، فنجد في مكة المكرمة أن حديقة كبيرة (بستان من الفاكهة) بجوار الحرم الشريف، تُوقَفُ «على الفقراء والمساكين والواردين والصادرين لزيارة سيد المرسلين، أوقفها الشيخ عزيز الدولة ريحان الندى الشهابي شيخ خدَّام الحرم الشريف، وذلك في سنة سبع وتسعين وستمائة»[1].

وكانت هناك مؤسسات وقفيَّة لمساعدة الفقراء والإنفاق عليهم: كوقف قراقوش الذي رُدَّ بعد غصبٍ في عهد السلطان لاجين إلى القاضي الشافعي، وكان ريعه قد بلغ عشرة آلاف درهم، كانت تُنفق كلها على الفقراء والمُعْوِزين[2].

وممَّا يُدَلِّل على اهتمام الملوك والسلاطين والأغنياء وأهل الخير بإنشاء الأوقاف التي تخدم الجوانب الاجتماعيَّة المختلفة لدى المسلمين، ما نُقل عن السلطان المملوكي الظاهر بيبرس (ت676هـ) من أن له وقفًا يُسَمَّى «الطرحاء لتغسيل فقراء المسلمين وتكفينهم

(1) ابن الضياء: تاريخ مكة المكرمة والحرم الشريف ص247.
(2) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك 307/2.

ودفنهم، وهو من أكثر الأوقاف نفعًا»[1]، ووجدت أوقاف كثيرة لإنشاء مقابر للمسلمين، فكانت أشهرها أوقاف الملك العادل كتبغا - نائب حماة في عهد الناصر محمد بن قلاوون - الذي أوقف على مقابر سفح قاسيون في دمشق أوقافًا جليلة.

وحرصت مؤسَّسات الرقابة في الدولة المملوكيَّة وعلى رأسها السلطان على إعادة تقييم أوضاع الأوقاف كل فترة، وعلى رأسها المؤسَّسات الوقفيَّة الكبيرة ذات الطابع الاجتماعي؛ ولقد كانت خانقاه سعيد السعداء في القاهرة من أكبر الأعيان الموقوفة على الصوفيَّة والفقراء؛ وإنه قد زاد عدد الصوفيَّة بها على العدد الذي صَرَّح به الواقف وهو 300 صوفي، فأصبحوا 500، إضافةً إلى أن أحد أهمِّ الأوقاف عليها وهي منطقة زراعيَّة تُسَمَّى (دهمرو)، كانت قد قحلت بسبب عدم وصول مياه النيل إليها؛ فزاد ذلك من الأزمة القائمة، وكان ذلك عام (797هـ) في عهد السلطان الظاهر برقوق؛ حيث «عزم مباشرو الخانقاه على غلق مطبخها ومخبزها، وقطع ما للصوفيَّة من الطعام واللحم والخبز في كل يوم، فلم يصبروا على ذلك»[2]، هذه الأزمة استدعت مناقشتها وضرورة حَلِّهَا؛ فأمر السلطان على الفور بتغيير الناظر القائم؛ فعيَّن بدلاً منه أحد كبار مماليكه ويُدْعَى يلبغا السالمي؛ ليُعِيدَ تقييم الوضع بها، ويُصَحِّح مساره عن طريق مراجعة شروط الواقف، التي كانت تقتضي وجود الصوفيَّة من أهل السلوك، فإن لم يوجدوا كانت وقفًا على الفقراء؛ فوجد يلبغا هذا أن الأمر قد خرج عن نصابه؛ فأمر على الفور بعقد جلسة طارئة في الخانقاه حضرها القضاة ومفتي مصر شيخ الإسلام البُلْقِينِيّ والصوفيَّة، فـ «قرأ عليهم كتاب الوقف، سألهم في الحكم بالعمل بشرط الواقف، فانتدب له من جملة الصوفيَّة زين الدين أبو بكر القمني من فقهاء الشافعيَّة، وشهاب الدين أحمد العبادي من فقهاء الحنفيَّة، وقضاتهم، وأخذا في مخاصمته. وطال النزاع فأضرب (ناظر الخانقاه) عن قولهما، وسأل القضاة عمَّا يفعل. فقالوا كلهم مع شيخ الإسلام: افعل شرط الواقف. وانفضوا، فقطع من ليلته نحو الخمسين من الصوفيَّة الذين يركبون البغلات، أو يلون القضاء والحكم بين الناس، أو لهم شهرة بغناء، وسعة مال»[3]؛ فهذا الموقف المهمُّ يُدَلِّل إلى أي مدًى كان لنظام الأوقاف خطورته على الأوضاع الاجتماعيَّة القائمة في الدولة، كما يظهر بجلاء كيفيَّة تعامل الدولة مع الأوضاع السيئة وتغييرها!

(1) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك 99/2.
(2) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك 372/5.
(3) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك 372/5.

ومن الأوقاف الاجتماعيَّة الرائعة في العصر المملوكي، والتي تُدَلِّل على التكافل الاجتماعي الذي كان أمرًا مفروضًا على الدولة تجاه رعاياها، ما أوقفه السلطان الظاهر برقوق (ت801هـ) على الحُجَّاج كل عام؛ حيث «وقف ناحية بهبيت من الجيزة على سحابة[1] تسير مع الركب إلى مكة في كل عام، ومعها جمال تحمل المشاة من الحاج، ويصرف لهم ما يحتاجون إليه من الماء والزاد ذهابًا وإيابًا»[2].

وقد وُجدت أوقاف لفكاك الأسرى؛ فقد نُقل عن الأمير حسام الدين طرنطاي -أحد كبار مماليك المنصور قلاوون- أنه كانت له أوقاف على فكاك الأسرى[3]، ووُجدت مؤسَّسَات وقفيَّة أخرى كان لها ريع عظيم، يُنفق منها على فكاك الأسرى؛ مثل ربع الحلزون فقد كان وقفًا لفكاك أسرى المسلمين ببلاد الفرنج؛ فضلاً على الإنفاق من خلاله على الحرمين الشريفين[4].

واهتمَّت الدولة المملوكيَّة بإنشاء المدارس الموقوفة والمكاتب؛ حتى إنه لا يُعرف على وجه الدقَّة عدد المدارس الموقوفة في هذا العصر من كثرتها؛ فقلما خلا حي من أحياء القاهرة ومصر وباقي الأقاليم من المدارس المستقلَّة، فضلاً عن المدارس الملحقة في الجوامع؛ كما انتشرت مكاتب الأطفال الموقوفة، وهذه المكاتب أو الكتاتيب كانت تُخَصَّص لأطفال المسلمين عامَّة، وأيتامهم خاصَّة؛ حيث كان الطفل يتعلَّم فيها القراءة والكتابة والحساب وحفظ القرآن وبعضًا من السيرة والسُّنَّة.

فمن أشهر مكاتب الأطفال في هذا العصر، نجد مكتب السبيل الذي أنشأه السلطان المنصور قلاوون (ت689هـ) بجوار البيمارستان المنصوري في القاهرة؛ فقد «رُتِّب فيه فقيهان يُعَلِّمَان سِتِّينَ صغيرًا من أيتام المسلمين كتاب الله تعالى، ورتب لهما جامكية[5] في كل شهر، وجراية في كل يوم؛ وهي لكل منهما (المعلمان) في كل شهر ثلاثون درهمًا، وفي كل يوم من الخبز ثلاثة أرطال، وكسوة في الشتاء، وكسوة في الصيف، ورُتب للأيتام لكل منهم في كل يوم رطلان خبزًا، وكسوة في الشتاء، وكسوة في الصيف»[6].

(1) السحابة: خيمة كبيرة مستطيلة الشكل، سقفها محدب كسنام الجمل. محمد أحمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي ص89.

(2) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك 446/5.

(3) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة 323/7.

(4) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك 99/7.

(5) الجامكية: لفظ فارسي معرب، وهي رواتب أصحاب الوظائف من الأوقاف. محمد أحمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي ص51.

(6) النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب 74/31، 75.

وانتشر إنشاء المكاتب المسبَّلة في العهد المملوكي بصورة واسعة، فقد أنشأ الأمير علاء الدين مغلطاي أستاذ الدار[1] العالية في عام (730هـ) «مكتب سبيل فيه عشرون نفرًا من الأيتام؛ رتَّب لكلٍّ منهم في كل يوم ثُمن درهم؛ يكون في كل شهر ثلاثة دراهم ونصف وربع درهم، ورتب لهم كسوة في فصل الشتاء والصيف، لجميعهم ستمائة درهم، وثمن أدوية ومداد في كل شهر درهمًا ونصف»[2]، فتعليم الأطفال على ما مرَّ يُدلل على الشموليَّة التي كانت تنتهجها الدولة وذوو الخير في التعامل معهم؛ من حيث التربية والتعليم والإنفاق على كافَّة المتطلَّبات التي يحتاجها الأطفال اليتامى؛ حتى يشبُّوا على تحمُّل المسئوليَّة، فينتفع بهم المجتمع الإسلامي؛ ولذلك كثر العلماء في كافَّة التخصُّصات في هذا العصر، حتى لا نكاد أن نحصيهم عددًا!

ويأتي مكتب الأمير أرغون العلائي -ناظر البيمارستان المنصوري- الذي أنشأه بجوار البيمارستان عام (747هـ) في مقدمة هذه المكاتب، وكذلك مكتب الصاحب جمال الدين بن يوسف ناظر الجيش، وفي عهد السلطان الظاهر برقوق نراه يجعل وقفًا جزيلاً لمكتب «يقرأ فيه الأيتام القرآن الكريم بقلعة الجبل»[3]، وهي القلعة التي يحكم منها الديار المصريَّة والشاميَّة وسائر البلدان الخاضعة لسلطانه!

وكما عمَّرت الدولة وذوو اليسار من المسلمين مكاتب لأبناء الفقراء واليتامى؛ فقد حرصوا على وقف المدارس؛ وللحقِّ فإن إنشاء المدارس -وهي بمثابة جامعات وكليات متخصِّصَة- في ظِلِّ الدولة المملوكيَّة قد فاق كل عصر وَمِصْرٍ؛ وما ذلك إلا دليل على استقرار الأوضاع الاقتصاديَّة فيها؛ ولقد عَبَّر ابن خلدون (ت 808هـ) عن استقرار الأوضاع في مصر المملوكية بقوله: «ويبلغنا لهذا العهد عن أحوال القاهرة ومصر من الترف والغنى في عوائدهم ما يقضى منه العجب؛ حتى إن كثيراً من الفقراء بالمغرب ينزعون من الثَّقلة[4] إلى مصر لذلك، ولِمَا يبلغهم من أن شأن الرَّفَهِ بمصر أعظم من غيرها، ويعتقد العامَّة من الناس أن ذلك لزيادة إيثار في أهل تلك الآفاق على غيرهم، أو أموال مختزنة لديهم، وأنهم أكثر صدقة وإيثارًا من جميع أهل الأمصار، وليس كذلك؛ وإنما هو لما تعرفه من أن عمران

---

(1) الأستادارية: وظيفة موضوعها التحدث في أمر بيوت السلطان كلها: من المطابخ، والشراب خانة، والحاشية، والغلمان وغير ذلك. محمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي ص15.

(2) النويري: نهاية الأرب 230/33.

(3) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك 448/5.

(4) المراد بذلك: ضيق المعاش، وثِقَل الحِمل على العائل.

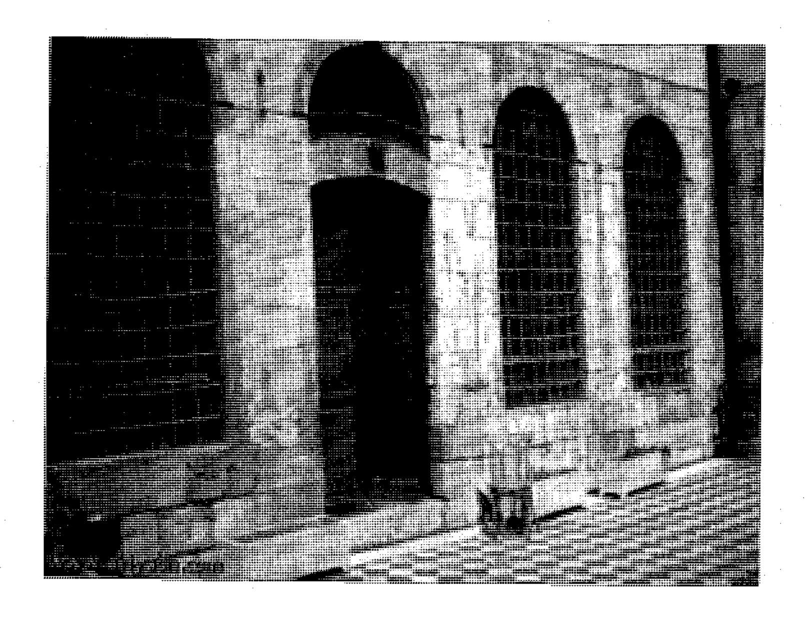
مصر والقاهرة أكثر من عمران هذه الأمصار التي لديك؛ فعظمت لذلك أحوالهم»[1]. فابن خلدون وإن كان يرى أن أسباب الرفاهية والاستقرار التي عايشها أهل مصر في ظلِّ الدولة المملوكيَّة راجع إلى إكثارهم من البناء والعمران؛ فإن ذلك لا يُلغي النظرة الثاقبة التي ارتآها العامَّة؛ وهي إكثار المصريين من فعل الخيرات، ليس عن طريق البذل، وإنما عن طريق إقامة مشاريع وقفيَّة عملاقة من شأنها خدمة الأُمَّة الإسلاميَّة جميعها، وهو ما حَدَا بالمغاربة وغيرهم بالهجرة على فترات متعاقبة في ذلك العصر إلى مصر.

ومهما يكن من أمرٍ، فقد أوقف المجتمع المملوكي ما لا يكاد أن يُحصى من المدارس العملاقة والجامعات المتقدِّمة؛ التي كانت مقصد الطلاب من كل صوب؛ فقد أنشأ السلطان الظاهر بيبرس (ت 676هـ) المدرسة الظاهريَّة بين القصرين في القاهرة (صورة رقم 28)، وكانت من أجمل المدارس وأعرقها، وتمت في أوائل سنة (662هـ)، وقد حوت هذه المدرسة الجامعة على أقسام عديدة في العلوم العقليَّة والنقليَّة، فضلاً عن دراسة القرآن الكريم والحديث الشريف، كما حوت مكتبةً كبيرةً اشتملت على الكثير من مختلَف أنواع الكتب، ومدرسة ابتدائيَّة لتعليم الأيتام، ولم يكتفِ بذلك، بل كان يُعطي لهم وجبة منتظمة من الطعام والخبز يوميًّا، فضلاً عن إعطائهم ملابس للشتاء والصيف، وقد «رتَّب في تدريس الإيوان[2] القبلي القاضي تقي الدين محمد بن الحسين بن رزين الشافعي، وفي تدريس الإيوان الذي يواجهه القاضي مجد الدين عبد الرحمن بن العديم، والحافظ شرف الدين الدمياطي لتدريس الحديث في الإيوان الشرقي، والشيخ كمال الدين المحلي في الإيوان الذي يُقَابله لإقراء القرآن بالروايات والطرق، ثم رتب جماعة يقرءون السبع بهذا الإيوان -أيضًا- بعد صلاة الصبح، ووقف بها خزانة كتب، وبنى إلى جانبها مكتبًا لتعليم الأيتام، أجرى عليهم الخبز في كل يوم، وكسوة الفصلين وسقاية تُعِينُ على الطهارة، وجُلس للتدريس بهذه المدرسة يوم الأحد ثالث عشر صفر من سنة اثنين وستين»[3]، وأقيمت احتفاليَّة كبيرة عند افتتاح هذه الجامعة، حضرها كبار رجال الدولة؛ كالصاحب بهاء الدين بن حنا، والأمير جمال الدين بن يغمور، والأمير جمال الدين أيدغدي وغيرهم من الأعيان.

(1) ابن خلدون: المقدمة ص362.

(2) الإيوان: مجلس كبير على هيئة صُفَّةُ (الظلة والبهو) واسعة لها سقف محمول من الأمام على عقد يجلس فيها كبار القوم. المعجم الوسيط 33/1.

(3) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة 107/7.



صورة رقم (28)
المدرسة الظاهرية



وفي عهد السلطان حسام الدين لاجين (ت 698هـ) نراه يهتم بإنشاء المدارس الموقوفة، فقد أنفق على المدرسة الملحقة بالجامع الطولوني أكثر من عشرين ألف دينار -وهو مبلغ ضخم جدًّا- بل «وعمَّر أوقافه، وأوقف منية أندونة[1] من الأعمال الجيزيَّة عليه، ورتَّب فيه درس تفسير ودرس حديث نبوي، وأربعة دروس فقه على المذاهب الأربعة، ودرسًا للطبِّ وشيخ ميعاد[2] ومكتب سبيل لقراءة الأيتام القرآن»[3].

واهتمَّ كبار التجار في الدولة بإنشاء هذه المدارس الموقوفة؛ مثل مدرسة المحليِّ التي بناها رئيس التجَّار برهان الدين إبراهيم بن عمر بن عليٍّ المحليُّ (ت 806هـ) في منطقة راقية على النيل بمدينة مصر جنوب القاهرة، وقد «جعل هذه المدرسة بجوار داره التي عمَّرها في مدَّة سبع سنين، وأنفق في بنائها زيادة على خمسين ألف دينار؛ وجعل بجوارها مكتب سبيل»[4].

واللافت أن النساء كان لهن دورهن الملحوظ في إنشاء هذه المدارس؛ فلقد بنت السيدة خوند تتر الحجازية، ابنة السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون، المدرسة الحجازيَّة في عام (761هـ) لتدريس المذهب الشافعي والمالكي، وألحقت بها مكتبًا وسبيلاً؛ وقد ذكر المقريزي هذه المدرسة في خططه، وأبدى إعجابه بنظامها وإدارتها، فقال: «جعلَتْ (خوند تتر) بهذه المدرسة درسًا للفقهاء الشافعيَّة، قَرَّرت فيه شيخنا شيخ الإسلام سراج الدين عمر بن رسلان البُلْقينيَّ، ودرسًا للفقهاء المالكيَّة، وجعلتْ بها منبرًا يُخطب عليه يوم الجمعة، ورتَّبت لها إمامًا راتبًا يُقيم بالناس الصلوات الخمس، وجعلت بها خزانة كتب... وأنشأت بها منارًا عاليًا من حجارة ليُؤَذَّن عليه، وجعلت بجوار المدرسة مكتبًا للسبيل فيه عدَّة من أيتام المسلمين، ولهم مؤدِّب يُعَلِّمُهم القرآن الكريم، ويجري عليهم في كل يوم لكل منهم من الخبز النقي خمسة أرغفة، ومبلغ من الفلوس، ويُقَام لكل منهم بكسوتي الشتاء والصيف، وجعلت على هذه الجهات عدَّة أوقاف جليلة يُصرف منها لأرباب الوظائف المعاليم السَّنِيَّة (المرتَّبَات)، وكان يُفرَّق فيهم كل سنة أيام عيد الفطر الكعك والخشكنان[5]، وفي عيد الأضحى اللحم، وفي شهر رمضان يطبخ لهم الطعام... محترمة إلى الغاية يجلس عدَّة من الطواشية[6] (للحراسة والأمن)...»[7].

---

(1) منية أندونة: إحدى قرى مدينة الجيزة بمصر. علي مبارك: الخطط التوفيقية الجديدة 165/16.

(2) الميعاد: درس ديني للوعظ والإرشاد، والحث على التقوى. انظر: القلقشندي: صبح الأعشى 380/3.

(3) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك 279/2.

(4) المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار 451/3.

(5) الخشكنان: خبزة تصنع من خالص دقيق الحنطة، وتملأ بالسكر واللوز أو الفستق وتقلى. المعجم الوسيط 236/1.

(6) الطواشية: المماليك الخصيان المعينون لخدمة بيوت السلطان وحريمه. محمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي ص109.

(7) المقريزي: المواعظ والاعتبار 487/3.

وكانت هناك مدارس موقوفة على فرع مُعَيَّن من فروع العلم؛ مثل المدرسة المهذَّبيَّة خارج باب زويلة بالقاهرة، بناها الحكيم مهذب الدين محمد بن علم الدين بن أبي الوحش، رئيس الأطباء في البيمارستان المنصوري بالقاهرة، وكانت مخصَّصة لتدريس العلوم الطبيَّة[1]. وكذلك وجدنا المدرسة الدنيسريَّة التي أنشأها كبير الأطباء في دمشق الحكيم عماد الدين محمد بن عباس بن أحمد الدُّنَيْسري (ت 686هـ)، وكذلك المدرسة اللبوديَّة النجميَّة التي أنشأها الطبيب نجم الدين يحيى بن محمد بن اللبودي في سنة (664هـ) في دمشق[2]، كل هذه المدارس الطبيَّة كانت مخصَّصة وفق نظام دراسي مُعَيَّن، يعتمد على الإجازة والمشاهدة ومن ثَمَّ الممارسة، لمن أراد ممارسة الطب وتعلمه، وكانت هذه الكليات وغيرها موقوفة، يُنْفَق من خلال هذه الأوقاف على المدرسين والطلاب والعاملين، فيتعلَّم الطالب، وينهل من المعارف ما يُريد، ثم تُعطى له الأموال الجزيلة من هذه المدارس أو بالأحرى الكليات الموقوفة؛ لتُعِينَه على سدِّ احتياجات الحياة من مأكل وملبس، فضلاً عن شراء الكتب وغيرها مما يحتاجه.

وكما أُنشئت المكاتب والمدارس فقد أُنشئت المكتبات العامَّة، أو ما كان يُسمى بـ«خزائن الكُتب» الموقوفة؛ فمن أجمل هذه المكتبات وأكبرها، مكتبة المدرسة المحموديَّة خارج باب زويلة بالقاهرة، فقد أنشأها الأمير جمال الدين محمود بن عليّ الأستادار عام (797هـ)، وقد أعجبت هذه المكتبة المقريزي من حيث عدد الكتب وأنواعها وكذا نظامها الداخلي؛ فقال: «عَمِلَ (الأمير محمود بن عليّ) فيها خزانة كتب لا يُعرف اليوم بديار مصر ولا الشام مثلها، وهي باقية إلى اليوم (عصر المقريزي المتوفى عام 845هـ) لا يخرج لأحد منها كتاب إلاَّ أن يكون في المدرسة، وبهذه الخزانة كتب الإسلام من كلِّ فنٍّ»[3]. وقبل ذلك أوقف الظاهر بيبرس (ت 676هـ) خزانة كتب جليلة في مدرسته الظاهريَّة بالقاهرة[4]، وكان كثير من كبار رجالات وأدباء وفقهاء وعلماء المجتمع الإسلامي في ذلك العصر يوقفون خزائن كتب متنوعة، وبعضهم كان يُبالغ في وقفها؛ فقد أوقف كاتب الإنشاء ناصر الدين شافع بن علي بن عباس بن إسماعيل (ت 730هـ) «ثماني عشرة خزانة كتب نفائس أدبيَّة وغيرها»[5].

---

(1) المقريزي: المواعظ والاعتبار 453/3.
(2) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس 104/2-107.
(3) المقريزي: المواعظ والاعتبار 520/3-523.
(4) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة 107/7.
(5) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة 207/9.

ولقد شهد العصر المملوكي اهتمامًا لافتًا بالأوقاف الصحِّيَّة، ومن فضل الله ﷻ علينا أن كثيرًا من هذه المنشآت الطبيَّة ظَلَّتْ باقية حتى يومنا هذا تُدلل على روعة الوقف الإسلامي، ومدى إنسانيَّة الإسلام وحضارته الراقية، ويأتي بيمارستان السلطان المنصور قلاوون (ت 689هـ) أو البيمارستان المنصوري ذخيرة طبيَّة كثيرًا ما تعجب كتاب التاريخ بها، ولقد علَّق ابن تغري بردي في تاريخه على أوقاف هذا البيمارستان بقوله: «هذا البيمارستان وأوقافه وما شرطه فيه لم يسبقه إلى ذلك أحد قديمًا ولا حديثًا شرقًا ولا غربًا»[1]. مما يُدلل على عظمته، وشهرته، وجماله!

وللأهميَّة الصحِّيَّة والاجتماعيَّة لهذا البيمارستان فإنه لم يكن يتولَّى مسئوليته إلا أتابك العسكر[2]، وقد أوقف المنصور قلاوون ما لا يكاد أن يُصَدِّقه إنسان على هذا البيمارستان من كثرته، وكما أنشأ المنصور قلاوون بيمارستانه الشهير في القاهرة؛ فقد أنشأ بيمارستانًا في القدس، سُمِّيَ -أيضًا- بالبيمارستان المنصوري، أوقف عليه أوقافًا دارَّة، وذلك عام (680هـ)[3].

واهتمَّ كثير من الأمراء والمماليك بإنشاء البيمارستانات ووقف الأوقاف الجزيلة عليها؛ ولم يتقيَّدوا في بنائهم لهذه المستشفيات بمكان مُعَيَّن بُغية الشهرة أو الذكر؛ إذ كان همُّ الواقفين أن يخدموا المُعْوِزين والفقراء ابتغاء لوجه الله ﷻ؛ فلقد أنشأ الأمير المملوكي سيف الدين القَيْمُرِيُّ البيمارستان القيمري بسفح جبل قاسيون في دمشق عام (653هـ) قبل وفاته بعام، ولقد علَّق ابن كثير على هذا البيمارستان بقوله: «من أكبر حسناته وقفه المارستان الذي بسفح قاسيون (بدمشق)»[4]. وقال اليونيني عن هذا البيمارستان وواقفه: «كان كثير البِرِّ والمعروف والصدقة ولو لم يكن له من ذلك إلا المارستان الذي ضاهى به مارستان نور الدين -رحمه الله- تعالى لكفاه»[5].

وبُنِيَتْ هذه البيمارستانات في أماكن مختلفة؛ واللافت أنها كانت أوقافًا وقفها كبار رجال الدولة والأثرياء؛ فقد بنى القاضي ناظر الجيوش المصريَّة فخر الدين محمد بن فضل الله

(1) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة 260/7.

(2) أتابك العسكر: أمير أمراء الجيش، وتأتي منزلته بعد نائب السلطنة. محمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي ص11.

(3) العليمي: الأنس الجليل 79/2.

(4) ابن كثير: البداية والنهاية 227/13.

(5) اليونيني: ذيل مرآة الزمان 33/1.

(ت 732هـ) بيمارستانًا شهيرًا نُسب إليه في مدينة الرملة، وأوقف عليه كثيرًا[1]، وبنى ناظر الجامع الأموي والأوقاف في دمشق الصاحب شمس الدين غبريال (ت 734هـ) مارستانًا عظيمًا في رحبتها عام (718هـ)، وأوقف عليه أوقافًا جزيلة[2]، كما بنى الأمير أرغون الكاملي (ت 758هـ) بيمارستانه الشهير في مدينة حلب بالشام، وأوقف عليه وقفًا كبيرًا[3]؛ خدمة لأهل تلك المناطق.

وبلغ الاهتمام بالبيمارستانات الموقوفة مَبْلَغًا عظيمًا من الرُّقِيِّ والاعتناء والتَّقَدُّم؛ حتى وجدنا أن بعض الناس كانوا يتمارضون رغبة منهم في الدخول إلى البيمارستان؛ لِمَا يجدونه من عناية ورعاية ومأكولات شهيَّة، وكان بعض الأطباء يَغُضُّون الطرف أحيانًا عن هذا التحايل؛ فقد ذكر المؤرِّخ خليل بن شاهين الظاهري[4] أنه زار أحد المستشفيات في دمشق عام (831هـ=1427م) فلم يُشاهِد مثله في عصره، وصادف أن شخصًا كان متمارِضًا في هذا المستشفى فكتب له الطبيب بعد ثلاثة أيام من دخوله: بأن الضيف لا يُقيم فوق ثلاثة أيام[5]!

وأما الأدوية فقد كانت تُصرف للمرضى مجَّانًا؛ بل كانت موقوفة شأنها شأن المستشفيات والمؤسَّسات الأخرى، وكثيرًا ما كان يذكر شرط الأدوية الموقوفة في نصِّ الوقفيَّة؛ فقد جاء في وثيقة الوقف للبيمارستان المنصوري أن البيمارستان قد وُقف لمداواة مرضى المسلمين الرجال والنساء من الأغنياء الميسورين والفقراء المحتاجين بالقاهرة وضواحيها، من المقيمين بها والواردين إليها من البلاد والأعمال، على اختلاف أجناسهم وأوصافهم، وتباين أمراضهم، وأوصابهم[6] من أمراض الأجسام؛ قَلَّتْ أو كثرت، اتفقت أو اختلفت، وأمراض الحواس؛ خفيت أو ظهرت، واختلال العقول التي حِفْظُها أعظمُ المقاصد والأغراض، وأوَّلُ ما يجب الإقبال عليه دون الانحراف عنه والإعراض، وغير ذلك ممَّا تدعو حاجة الإنسان إلى إصلاحه، وإصلاحه بالأدوية والعقاقير المتعارفة عند أهل صناعة

---

(1) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة 300/9.

(2) الصفدي: أعيان العصر وأعوان النصر 418/1.

(3) ابن كثير: البداية والنهاية 259/14.

(4) خليل بن شاهين الظاهري: (813- 873هـ=1410-1468م)، يعرف بابن شاهين، كان من المولعين بالبحث، وله تصانيف ونظم، اشتهر بمصر، من تصانيفه: زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك. انظر الزركلي: الأعلام 318/2.

(5) انظر: عكرمة سعيد صبري: التمريض في التاريخ الإسلامي ص29، 30.

(6) الأوصاب: الأَسْقام والأوجاع والتعب والفتور في البدن. ابن منظور: لسان العرب، مادة وصب 797/1، والمعجم الوسيط 1036/2.

الطب، يدخلونه جموعًا ووحدانًا، شيوخًا وشبَّانًا، وبلغًا وصبيانًا، وحرمًا وولدانًا، يقيم به المرضى الفقراء من الرجال والنساء لمداواتهم إلى حين شفائهم، ويصرف ما هو مُعَدٌّ فيه للمداواة، ويفرق للبعيد والقريب... والغني والفقير... من غير اشتراط لعوض من الأعواض، ولا تعريض بإنكار على ذلك، ولا اعتراض، بل لمحض فضل الله العظيم[1].

وفي هذا إشارة واضحة لتحديد الملامح الأخلاقيَّة بالمارستان المنصوري، وهذه الملامح لأهميتها سُجِّلَتْ في وقفيَّة البيمارستان؛ حتى تكون ملزمة للعمل بها بما لا يجعل المهنة عرضة للانحدار الأخلاقي والقيمي والرغبة الذاتيَّة لمارسة المهنة؛ ولهذا قال المؤرخ المملوكي يوسف بن تغري بردي الأتابكي عن هذا البيمارستان العظيم: «ومما يدلُّ على علوِّ همَّة الملك المنصور قلاوون وحسن اعتقاده: عمارته للبيمارستان المنصوري ببين القصرين من القاهرة؛ فإننا لا نعلم في الإسلام وقفًا على وجه برٍّ أعظم منه، ولا أكثر مصروفًا، ولا أحسن شرطًا، ولو لم يكن من محاسنه إلا البيمارستان المذكور لكفاه ذلك دنيا وأخرى»[2].

واللافت أنه كان هناك بعض الأطباء في ظلِّ الدولة المملوكيَّة يوصي عند اقتراب الأجل بوقف الكتب الطبِّيَّة التي ألَّفها، مثل ما فعله العالم الشهير والطبيب الفاضل ابن النفيس علي بن أبي الحزم القرشي؛ إذ وقف كتبه وجميع أملاكه على البيمارستان المنصوري بالقاهرة؛ ليستفيد بها الأطباء في توصيف العقاقير والأدوية الصحيحة؛ وما كانت هذه الكتب إلاَّ خلاصة لتجارِب هذا العالم الشهير، الذي قضى في مهنة الطب أكثر من اثنتين وستين عامًا[3]!

ومن أَجَلِّ الأوقاف التي قام بها المماليك نظام الأسبلة، ويتمثَّل في سقاية عابر السبيل، وهذا النظام الإسلامي الفريد الذي أنفق عليه سلاطين المماليك أموالاً طائلة، وأوقفوا عليه مالاً وفيرًا، لم نجد له مثيلاً في الحضارات الأخرى؛ مما يُدَلِّل على النزعة الإنسانيَّة فضلاً عن الناحية الجماليَّة في حضارتنا الخالدة، ويُعَدُّ سبيل مدرسة الظاهر بيبرس الذي أنشئ عام (660هـ) من أقدم الأسبلة الإسلاميَّة، ولقد كانت الأسبلة دائمًا تُبْنَى ملحقة بغيرها من

---

(1) اشتهرت بيمارستانات المنصور قلاوون بالجودة العالية، والمهارة الفائقة؛ والخدمة المتازة فشبيه ببيمارستانه الذي أنشأه في القاهرة وجدنا البيمارستان المنصوري في القدس الذي أوقف عليه المنصور قلاوون ما لا يكاد يحصى من الأوقاف التي كانت تدر أموالاً طائلة. العليمي: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل 79/2.

(2) يوسف بن تغري بردي: مورد اللطافة في من ولي السلطنة والخلافة 39/2.

(3) الذهبي: تاريخ الإسلام 312/51.

المباني؛ مثل: المدارس والمساجد، ونادرًا ما يُبْنَى السبيل بمفرده . . . كما اتَّخَذَتْ هذه الأسبلة عدة هيئات؛ فهي إمَّا سبيل ذو شباك واحد ملحق بمنشأة ذات واجهة واحدة على الطريق العامِّ؛ كما في مدرسة أُمِّ السلطان شعبان في القاهرة، وإمَّا سبيل ذو شباكين، يُبْنَى في أركان المدارس والمساجد؛ مثل: سبيل الناصر محمد بن قلاوون الذي بُنِيَ سنة (726هـ)، ويُعَدُّ سبيل قايتباي من أجمل الأسبلة التي أُنشئت في العصر المملوكي الجركسي (صورة رقم 29)؛ وكانت هذه الأسبلة تبنى بطرق هندسيَّة رائعة؛ فغالبًا ما تتكون من طابقين: أما الأول؛ فيطلق عليه الصهريج، ويكون في داخل الأرض لتخزين المياه، وهو بذلك لا يظهر للعيان، وتبنى الصهاريج بطبقة عازلة ومقاومة للرطوبة. أمَّا الطابق الثاني؛ فهو حجرة التسبيل وملحقاتها؛ حيث نجد في الواجهة شبابيك التسبيل، ويتقدَّمها ألواح حجريَّة أو رخاميَّة لوضع كيزان الشرب عليها، ويتقدَّم كل شباك مصطبة لوقوف المارَّة عليها في أثناء الشرب؛ حتى يكونوا بمأمن من حركة الطريق. وتُرفع المياه من الصهريج الموجود بباطن الأرض عن طريق أنابيب غير مرئيَّة، ثم تمرُّ على أحواض رخاميَّة إلى أن تَصِلَ إلى حجرة التسبيل، التي تتوسط أرضيات شبابيك التسبيل، ثم يضاف إليها ماء الورد لتكون جاهزة للشرب، وغالبًا ما كان يُلحق بأعلى السبيل مكتب لتعليم الأيتام[1]!

وقد استطاعت الدولة أن تُشَيِّدَ الصهاريج الكبيرة في معظم الجوامع والمساجد في مصر والشام؛ فقلما كان يجد الناس صعوبة في الوضوء أو وجود مياه في تلك المساجد؛ وقد ذكر لنا المقريزي في خططه عشرات الصهاريج، التي بناها السلاطين والأمراء وحتى العامَّة في جوامع القاهرة وقيسارياتها[2] وأبوابها العامَّة، وكذا ضواحي القاهرة وحاراتها[3]، وكانت مهمة هذه الصهاريج حفظ المياه وتثليجها في خزانات كبيرة تحت مستوى سطح الأرض، بعمق مُعَيَّنٍ، وكانوا يستخدمون في إنشائها أنواعًا مخصَّصة من الرخام، ثم تُسبَّل هذه المياه في أماكن محدَّدة للعامَّة والخاصَّة.

فمن أشهر الصهاريج التي بُنيت في ذلك العصر: صهريج السلطان بيبرس في صفد؛ فقد أنشأ في قلعتها «صهريجًا كبيرًا مدرَّجًا من أربع جهاته، وبنى عليه برجًا زائد الارتفاع، قيل:

---

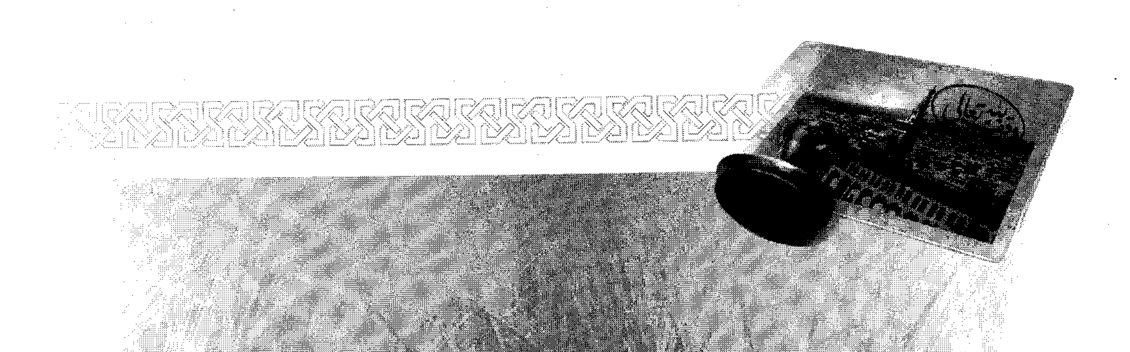
(1) الموسوعة العربية العالمية 6/7، ومنى درويش: مقال بموقع إسلام أون لاين بعنوان: «الأسبلة جمال دين ودنيا» بتاريخ 2001/4/14م.

(2) قيسارية: الخان الكبير الذي يشغله مجموعة من التجار. محمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي ص126.

(3) المقريزي: المواعظ والاعتبار 331/3.



صورة رقم (29)
سبيل السلطان قايتباي



إن ارتفاعه مائة ذراع»[1]. ومن أجمل صهاريج ذلك العصر وأكبرها وقفًا نجد صهريج الأمير منجك اليوسفي السلاح دار (ت 767هـ)؛ فقد بنى صهريجه قبالة قلعة الجبل عند منطقة باب الوزير في حدود عام (751هـ)، وقد «اشترى له (الوزير) من بيت المال ناحية بلقينة بالغربيَّة بخمسة وعشرين ألف دينار، وأنعم عليه بها، فوقفها منجك على صهريجه»[2]، وقد عمَّر السلطان سيف الدين برسباي (ت 841هـ) صهريجًا كبيرًا وسط الجامع الأزهر لتسبيل المياه للعامَّة[3]، وحرص سلاطين الدولة المملوكيَّة المتأخِّرينَ على بناء تلك الصهاريج في المشاعر المقدَّسة؛ فقد حفر السلطان الأشرف قايتباي (ت 901هـ) صهريجًا مساحته عشرون ذراعًا في نمرة، أي ما يقرب من أربعة عشر مترًا؛ وقفًا للحجاج، وتسبيلاً لهم[4].

ومن أرقِّ الأوقاف التي وُجدت في العصر المملوكي ما تحدث عنه ابن بطوطة في رحلته بإعجاب وانبهار، فقال عن أوقاف دمشق: «والأوقاف بدمشق لا تُحصر أنواعها ومصارفها لكثرتها؛ فمنها أوقاف على العاجزين عن الحجِّ، يُعطى لمن يحجّ عن الرجل منهم كفايته، ومنها أوقاف على تجهيز البنات إلى أزواجهنَّ، وهنَّ اللواتي لا قدرة لأهلهنَّ على تجهيزهنَّ، ومنها أوقاف لفكاك الأسارى، ومنها أوقاف لأبناء السبيل؛ يُعطون منها ما يأكلون ويلبسون ويتزوَّدُون لبلادهم، ومنها أوقاف على تعديل الطرق ورصفها؛ لأن أزقَّة دمشق لكل واحد منها رصيفان في جنبيه يمرُّ عليهما المترجِّلُون، ويمرُّ الركبان بين ذلك، ومنها أوقاف لسوى ذلك من أفعال الخير»[5].

ومن أعجب ما ذكره ابن بطوطة «أوقاف الأواني»؛ إذ قال عن تجربة شخصيَّة له: «مررت يومًا ببعض أزقَّة دمشق فرأيت به مملوكًا صغيرًا قد سقطت من يده صحفة من الفخار الصيني، وهم يُسَمُّونها الصَّحن، فتكسرت واجتمع عليه الناس، فقال له بعضهم: اجمع شقفها، واحملها معك لصاحب أوقاف الأواني. فجمعها، وذهب الرجل معه إليه، فأراه إيَّاها، فدفع له ما اشترى به مثل ذلك الصحن، وهذا من أحسن الأعمال؛ فإن سيِّدَ الغلام لا بُدَّ له أن يضربه على كسر الصحن، أو ينهره، وهو -أيضًا- ينكسر قلبه، ويتغيَّر لأجل ذلك؛ فكان هذا الوقف جبرًا للقلوب، جزى الله خيرًا من تسامت همَّته في الخير إلى مثل هذا»[6]!

---

(1) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة 171/7.
(2) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة 157/10.
(3) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك 101/7.
(4) العيدروس: النور السافر عن أخبار القرن العاشر ص20.
(5) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة ص99.
(6) السابق ص100.

إن كلَّ ما مرَّ بنا في ظلِّ الدولة المملوكيَّة من أنواع مختلفة ومتنوِّعة ورائعة من الأوقاف -رغم قِلَّتها- دليلٌ لا ريب فيه على عظمة الدور الذي أدَّته هذه الأوقاف، في كافَّة مناحي الحياة: الدينيَّة والاجتماعيَّة والاقتصاديَّة والعلميَّة والثقافيَّة والحربيَّة.. وغيرها، فكلُّ ما مرَّ بنا غيض قليل من فيض كثير، يُبرز بصورة تقريبيَّة الأوضاع السائدة في ذلك العصر الذهبي لمصر والشام وبلاد الحجاز.

روائع الأوقاف في عصر الخلافة العثمانية

رغم انتقال مؤسَّسة الخلافة بعظمتها وهالتها لأوَّل مرَّة منذ عهد النبي ﷺ من الأقاليم العربيَّة سواء في الشام أو العراق أو مصر إلى بلاد الأناضول؛ إلا أن ذلك لم يُغَيِّر من الأمر شيئًا؛ إذ الإسلام هو الإسلام في أي أرض وتحت أي سماء؛ فلقد التزمت الخلافة العثمانيَّة بتعاليم الإسلام وأخلاقياته ونظمه؛ ومن ثَمَّ لم تتوقَّف حركة المجتمع الإسلاميَّة وكذا الدولة في إنشاء الأوقاف الجديدة، وترميم القديمة، ووضع نظم وتشريعات لإدارتها بطرق سليمة ميسورة.

فقد اهتمَّت الخلافة العثمانيَّة بالأوقاف على كافَّة مستوياتها، ونُظِّمت هذه الأوقاف وفقًا لمجموعة من القوانين وضعها ونظمها كبار الفقهاء والعلماء في ظلِّ هذه الدولة؛ فعلى صعيد الوقف الديني المتمثِّل في إقامة المساجد والجوامع العامرة بذكر الله ﷻ؛ فقد تزامنت هذه الأوقاف مع قيام الدولة، وبلغت أوجها في ظلِّ التوسُّع والانتشار الذي حقَّقَتْه في البلدان الإسلاميَّة في المشرق والأوربيَّة في الغرب.

فقلما خلا عهد خليفة من خلفاء العثمانيين من إنشاء مسجد موقوف لله ﷻ؛ فقد أنشأ الخليفة مصطفى الثالث (ت 1187هـ = 1774م) في إسكدار جامعًا كبيرًا، ووقف عليه خيرات كثيرة، وأصلح جامع السلطان محمد الفاتح (صورة رقم 30)، التي زلزلت أركانه زلزلة شديدة[1].

كما اهتمَّ كثير من ميسوري المسلمين وكبار الموظفين بإنشاء هذه المساجد، وإنشاء الأوقاف عليها؛ ففي دمشق أنشأ صالح آغا بن صدقة -أحد كبار أثريائها ومتقدِّميها (ت 1100هـ)- «خيرات وعمَّر مسجدًا شرقي داره، وأوقف له أوقافًا، ورتَّب فيه أجرَّاء

(1) محمد فريد: تاريخ الدولة العلية العثمانية ص340.

ومؤذِّنين»[1]، ومثله ما فعله الخواجا عمر السفرجلاني (ت 1112هـ) أحد أثرياء دمشق؛ فقد «عمَّر مسجدًا كبيرًا له مئذنة، وله أوقاف ومبرات لا تحصى»[2].

وفيما يتعلَّق بأوقاف قاطني الحرمين الشريفين؛ فلقد سعت المؤسَّسات الرسميَّة في الدولة وعلى رأسها السلطان نفسه بوقف الأوقاف النافعة للفقراء والمحتاجين؛ فقد جعل السلطان مراد الثالث بن سليم الثاني (ت 1003هـ=1595م) «دشيشة[3] لأجل فقراء المدينَة الشريفة، ووقف عليها أوقافًا كثيرة وبها النفع التامّ لأهل المدينَة»، ويأتي وقف السلطان أحمد الأول بن محمد الثالث (ت 1026هـ=1617م) من جملة هذه الأوقاف النافعة؛ فقد «عمل سحابة بطريق الحاج المصري يحمل بها الماء للفقراء والمساكين ووقف عليها أوقافًا»[4].

وامتدَّ الاهتمام بإنشاء الأوقاف إلى الحرمين الشريفين والقائمين عليه من الموظفين والعمال؛ حيث رتَّب الخليفة عدلي محمود الثاني بن السلطان عبد الحميد الأول (ت 1255هـ=1839م) «مرتبات للعلماء والخطباء بالحرمين الشريفين، وللقائمين بخدمة المسجدين الشريفين؛ مثل: المؤذنين، والفراشين، والكناسين، والبوابين، وجعل للجميع مرتبات جزيلة من النقود الجليلة، بعضها شهريات وبعضها سنويات، واشترى لذلك عقارات كثيرة، وأوقفها ليصرف من غلاتها جميع المرتبات المذكورة، فصارت حسنة جارية إلى هذا الوقت؛ يَحْصُل منها كمال النفع والإعانة للمذكورين على معاشهم»[5].

ومن الأوقاف الجميلة التي تُعبِّر عن رعايَة الخلافة العثمانيَّة للحُجَّاج: وقف سكة حديد الحجاز؛ فقد كانت أملاك وعقارات هذا الوقف تقع في ساحة البرج في بيروت، وهو أكبر عقار منفرد في الساحة، وكان الهدف من إيجاد هذا الوقف العقاري تأمين أموال سنويَّة للإنفاق على سكة حديد الحجاز الممتدَّة من دمشق إلى المدينة المنورة، وتسهيلاً للحجَّاج في طريقهم للحجٍّ إلى بيت الله الحرام، وهذه السكة هي التي كان قد خربها لورنس العرب[6] خلال الحرب العالميَّة الأولى (1914م- 1918م)[7].

---

(1) ابن كنان: يوميات شامية ص37.

(2) السابق: ص40.

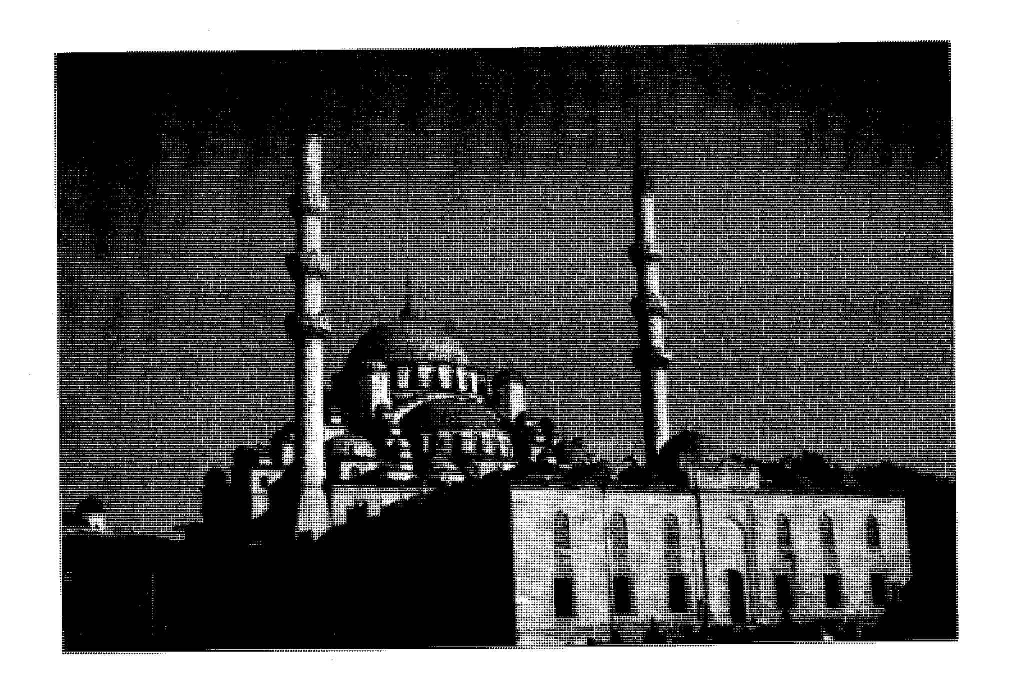
(3) الدشيشة: طعام رقيق من قمح مدقوق. المعجم الوسيط 284/1.

(4) المحبي: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر 182/1.

(5) عبد الرزاق البيطار: حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر 131/2.

(6) لورنس العرب: هو توماس إدوارد لورنس ضابط المخابرات البريطانية في الجزيرة العربية، اقترن اسمه بأحداث من تاريخ العرب الحديث، ولد عام 1888م وتوفي صريعًا في بريطانيا عام 1935م. الزركلي: الأعلام 94/2.

(7) حسان حلاق: أوقاف المسلمين في بيروت في العهد العثماني ص151.



صورة رقم (30)
جامع السلطان محمد الفاتح



ومن الأوقاف الرائعة التي أُنشئت من أجل الفقراء ما قام به الخليفة عبد المجيد خان الأول بن محمود الثاني (ت 1277هـ=1861م)؛ حيث أنشأ جسرًا -بجوار جسرين آخرين- يربط القسطنطينية (إسلام بول) بقرية في شمالها الشرقي تسمى (غلطا)، وأوقفه على فقراء المرضى؛ حيث ألزم من يسير عليه بدفع قيمة معينة من المال تُنفق على «دار الشفا»؛ أي: المستشفى الخيري في العاصمة العثمانيَّة[1]!

وقد ساهمت الأُسَر والعائلات الكبيرة في إنشاء الأوقاف الدارَّة للفقراء والمُعْوِزين وغيرهم؛ ففي العراق أوقف «آل بريطم حديقة كبيرة في زقاق بليبل (بكربلاء) أُوقفت حاصلاته لإطعام الفقراء»[2].

وعنيت الخلافة العثمانيَّة بإنشاء المستشفيات الموقوفة، كما حرصت على ترميم ما تشعَّث من البيمارستانات التي أقيمت في العصر المملوكي والزياني والطاهري، أو بالأحرى الدول التي ورثتها الخلافة العثمانيَّة؛ ففي مصر تم ترميم كثير من مستشفيات العصر المملوكي، وفي مقدمتها البيمارستان المنصوري في القاهرة[3]، وفي دمشق حرص الباشاوات (الولاة) على تجديد عمارة البيمارستان النوري والقيمري، وهما من أشهر المستشفيات الإسلاميَّة في ذلك الوقت، وكانا قد اضمحلَّ وقفهما، فحرصت مؤسَّسة الخلافة على اختيار أفضل المتولِّين أصحاب الخبرة والكفاءة لإدارة هذه الأوقاف، وكان حسن باشا بن عبد الله الأمين (ت 1027هـ=1618م) من أصحاب الكفاءة والخبرة؛ فقد «ولي وقف البيمارستان النوري، فأقام شعائره بعد أن كانت اضمحلت وعمّر أوقافه، وأتى فيه من حسن التنمية بما لا مزيد عليه؛ فاستدعاه المولى مصطفى المعروف بكوجك قاضي القضاة بدمشق؛ لولاية البيمارستان القيمري فأبى، حتى أَبْرَم[4] عليه هو ورئيس الأطباء بدمشق الشيخ شرف الدين لاضمحلال حاله، ثم قَبِلَه على شريطة أن لا يتناول فيه رئيس الأطباء بعض أشياء عَيَّنها، ولا يخالطه من أموره بسوى قبض القدر الفلاني من علوفته؛ فإنه بسبب تجاوزه وتجاوز أمثاله خرب الوقف؛ فقَبِلَ القاضي والرئيس شَرْطه وعمَّره، ونمَّى وقفه، وولي تولية الجامع الأموي بعد أن كاد وقفه يذهب، فبذل جهده في ضبطه وتنميته»[5].

(1) الآلوسي: غرائب الاغتراب ص60.
(2) وزارة الإعلام السورية: لكود القشعم 201/1.
(3) الجبرتي: تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار 493/1.
(4) وأبرم عليه المقصود: ألحَّ عليه.
(5) المحبي: خلاصة الأثر 391/1.

وأبدع المسلمون في وقف المستشفيات؛ حتى إننا وجدنا في ذلك العصر شروطًا تدلُّ على الوعي التامِّ، والرحمة التي تُعبِّر عن إنسانيَّة الإسلام ورفقه؛ فلقد كان يُذكر في نصِّ الوقفيَّة وجوب تقديم طعام كلِّ مريض في إناء مستقلٍّ خاصٍّ به من غير أن يستعملها مريض آخر، ووجوب تغطيتها وإيصالها إلى المريض بهذا الشكل، وقد خُصِّص في البيمارستانات قاعات مستقلة للمؤرَّقين من المرضى؛ إذ كانوا يُعزلون فيها، فيُشَنِّفون آذانهم بسماع الأناشيد، والاستماع إلى القصص التي يرويها عليهم القصاص حتى يغلبهم النوم؛ وقد ظَلَّتْ هذه العادة حتى دخول الحملة الفرنسيَّة إلى مصر عام (1798م)، فشاهدها العلماء الفرنسيون بأنفسهم وكتبوا عنها؛ مما يُدَلِّلُ على البعد الإنساني والأخلاقي والنفسي الذي كانت تقوم به هذه المؤسَّسات الرائعة في تاريخنا المجيد.

ومن الأوقاف الغريبة والنافعة في عهد الخلافة العثمانيَّة ما ذكره الدكتور مصطفى السباعي -رحمه الله- أنه حُكي له عن وقف غريب في مدينة طرابلس الشام؛ كان ريعه مخصَّصًا لتوظيف اثنين يمرَّان في المستشفيات يوميًّا؛ فيتحدَّثان بجانب المرضى حديثًا خافتًا؛ ليَسْمَعَه المريض بما يوحي له بتحسُّنِ حالته، واحمرار وجهه، وبريق عينيه[1]!

ومما يسترعي الانتباه أنه كانت هناك أوقاف مخصَّصة لعلاج الحيوانات ورعايتها؛ وقد وُجدت نصوص وقفيَّة تُدَلِّل على وجود أوقاف خاصة لتطبيب الحيوانات المريضة، وأوقاف أخرى لرعي الحيوانات المسنَّة والعاجزة، ومنها أوقاف المرج الأخضر الذي حُوِّل فيما بعد إلى ملعب لكرة القدم في دمشق؛ ووُجد وقف آخر للقطط تأكل منه وتنام فيه[2]!

واهتمَّ العثمانيون بوقف المدارس والمكتبات العامَّة، فقلما خلت مدينة تابعة للخلافة العثمانيَّة من إنشاء مدرسة موقوفة لكافة طلابها من أبناء الفقراء والأغنياء؛ فمن أشهر هذه المدارس: مدرسة السلطان مراد ببلدة مغنيسا، ومدرسة السلطان سليم الأول بقسطنطينية، ومدرسة السلطان أحمد، فهذه المدارس وغيرها كانت في العاصمة وحواليها؛ ووُجدت مدارس أخرى؛ مثل: المدرسة السلطانيَّة المراديَّة بمكة، ومدرسة السلطان عبد الحميد.

ومن المدارس المتخصِّصة الموقوفة في ذلك العصر وُجدت المدارس الحربيَّة، وهو نظام جديد لم يكن يعرفه العالم الإسلامي من قبل؛ ولقد كان السلطان مصطفى الثالث (ت 1187هـ=1774م) من أهم سلاطين العثمانيين اهتمامًا بإنشاء هذه المدارس؛ إذ اهتمَّ

---

(1) مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا ص112، 113.

(2) السابق ص89.

بإنشاء مدارس الطُبجية[1] و«إنشاء مدرسة حربيَّة لتخريج الضباط على مثال مدرسة سانسير الفرنساويَّة، التي أسسها نابوليون الأول بفرنسا»[2].

وتنوَّعت الأوقاف العلميَّة في ذلك العصر؛ حيث إن هناك مَنْ أَوْقَفَ أوقافًا عجيبة للجامع الأزهر -كان بمثابة جامعة كبرى - لتضمن حُسْنَ سَيْرِ العمليَّة التعليميَّة، وتوفُّر أكبر قسط من الراحة للمدرِّسين؛ ومن هذه الأوقاف وقف البغلة! وهو وقف خُصِّصَ للإنفاق على البغال التي يركبها المدرسون بالجامع الأزهر لضمان الراحة لهم[3]!

كما حرص عامَّة المسلمين على إنشاء هذه المدارس الموقوفة؛ فقد بنى المفتي الأعظم في الخلافة العثمانيَّة أحمد بن يوسف (ت1055هـ=1646م) «مدرسة بقسطنطينية تجاه داره بالقرب من جامع السلطان محمد الفاتح»[4]، وحرص والي دمشق سُليمان باشا - الذي تقلد الحكم من عام 1046حتى عام 1051هـ على «إنشاء مدرسة بجوار بيته، حسنةً غزيرة الماء»[5]؛ أوقفها لطلبة العلم، كما بنى قاضي العسكر قرة جلبي محمود بن محمد أبو الفضل (ت 1063هـ=1653م) «مدرسة لطيفة بالقرب من جامع الشهرزاده بقسطنطينية وصرف عليها مالاً جزيلاً»[6]، هذه المدارس الموقوفة تُدَلِّلُ على أمر مهمٍّ جدًّا، وهو مدى العطاء الزائد الذي تمتَّع به أبناء الحضارة الإسلاميَّة؛ فهذه المدارس كانت تُنشأ فضلاً من أصحابها؛ إذ كان على الدولة أن تقيم من بيت مالها عشرات المدارس لطلبة العلم، أما المدارس الموقوفة فقد كانت تعبيرًا حقيقيًّا عن عظمة وروعة التكافل الاجتماعي بين أبناء الإسلام في كل الجوانب الحياتيَّة؛ ضروريَّة كانت أم حاجيَّة أم تحسينيَّة!!

ومن أجمل الأوقاف الخيريَّة التي وجدت في بيروت في العصر العثماني وقف قفة الخبز؛ وهو وقف خيري أُقيم لغرض اجتماعي إنساني، وكان موقعه في باطن بيروت، وله دكان خاصٌّ تُوضع فيه قُفَّة مليئة بالخبز في كل يوم جمعة؛ حيث يقصدها المُعْوِزُون والفقراء والمساكين القاطنون في بيروت من مختلَف الطوائف، فيوزِّع متولِّي قُفَّة الخبز

(1) الطبجية: أي مدارس المدفعية، نسبة إلى الطبجي: وهو المدفعي. محمد أحمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي ص105.

(2) محمد فريد: تاريخ الدولة العلية العثمانية ص446.

(3) مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا ص102.

(4) المحبي: خلاصة الأثر 231/1.

(5) ابن كنان: يوميات شامية ص136.

(6) المحبي: خلاصة الأثر 128/3.

عليهم، فيأخذ كل منهم حاجته وينصرف دون سؤال أو إذلال، وقد كان لهذه القفَّة أوقاف عديدة وبعض العقارات والمخازن، التي يعود ريعها وارداتها لوجود قفَّة الخبز[1].

ومن الأوقاف الرائعة التي انتشرت في ظلِّ الخلافة العثمانيَّة وجدنا أوقافًا لإعارة الحليِّ والزينة في الأعراس والأفراح، فيستفيد من هذا الوقف الفقراء والعامَّة بما يلزمهم من الحليِّ لأجل التزيُّن به في الحفلات، ويُعيدونه إلى مكانه بعد انتهائها، فيتيسَّرُ للفقير أن يبرز يوم عرسه بحلَّة لائقة، ولعروسه أن تُحَلَّى بحلية رائعة مما يجبر خاطرهما[2]!

وفي المغرب العربي، وبالتحديد في الجزائر وُجدت مؤسسة أوقاف الأندلسيين؛ وهي من أروع الأوقاف الإسلاميَّة في ذلك العصر؛ فقد قامت هذه المؤسسة الوقفيَّة بعد محنة الأندلسيين الذين نزحوا إلى المغرب العربي، واستقروا في المدن الساحليَّة، وساهموا في الحرب ضد الإسبان، وترجع أولى عقود هذه المؤسَّسة حسب المؤرخ الفرنسي ديفوكس "Devoulx" إلى سنة (980هـ=1572م)؛ فقد كان أغنياء الجالية الأندلسيَّة يوقفون الأملاك على إخوانهم اللاجئين الفارِّين من جحيم الأندلس[3].

وقد تعزَّزت مؤسَّسة أوقاف الأندلسيين بعدها بتأسيس مؤسسة ثقافية وتعليمية ودينية سُمِّيَت بزاوية الأندلسيين[4]، ثم تكاثرت مشاريعهم الخيريَّة حتى بلغت بالفرنك الذهبي 408072 في عام 1837م[5].

ومن الأوقاف اللطيفة التي تُعبِّر عن إنسانيَّة الحضارة الإسلاميَّة بصفة عامَّة، والعثمانيَّة بصفة خاصَّة ما وُجد في الشام وسُمِّيَ بوقف الإبريق؛ ويُعرف أيضًا باسم وقف الفاخورة أو الكاسورة، وهو وقف خيري، غايته الضمان الاجتماعي[6]، وكان لهذا الوقف دكان خاصٌّ لتوزيع الأباريق والأواني الفخاريَّة، وموقعه في باطن بيروت، وكانت مهمة القيِّم على الوقف إعطاء الصبي والفتاة والفقير والغلام وعاءً فخاريًّا سليمًا مقابل الوعاء الذي

---

(1) حسان حلاق: أوقاف المسلمين في بيروت في العهد العثماني ص150.

(2) شكيب أرسلان: حاضر العالم الإسلامي 8/3.

(3) فارس مسدود وكمال منصوري: مقال بمجلة أوقاف الكويتية بعنوان: «التجربة الجزائرية في إدارة الأوقاف.. التاريخ والحاضر والمستقبل»، العدد 15، ص69.

(4) مصطفى أحمد بن حموش: الوقف وتنمية المدن من التراث إلى التحديث، ندوة الوقف الإسلامي ص6.

(5) محمد البشير الهاشمي مغلي: التكوين الاقتصادي لنظام الوقف الجزائري ودوره في المقاومة للاحتلال الفرنسي ص164.

(6) يُذَكِّرنا هذا الوقف بما ذكره ابن بطوطة في رحلته إلى دمشق في القرن الثامن الهجري، فقد ذكر وقف الأواني وهو مماثل لوقف الكاسورة.

انكسر معه أثناء قيامه بعمله، والحكمة من ذلك أن الصبي إذا أرسله معلمه لملء الإبريق ماءً من السبيل، ولسبب من الأسباب كسر الإبريق فبدلاً من تعرُّض الصبي للضرب والتوبيخ والإهانة أو الطرد من العمل، فإن بإمكان هذا الصبي أخذ الإبريق المكسور إلى متولِّي وقف الإبريق (الكاسورة)، والحصول على إبريق جديد، وهذا النوع من الضمانة الاجتماعيَّة للقاصرين، علماً أن جميع الأسبلة في بيروت كانت أباريقها الموضوعة أمامها ليشرب منها المارَّة إنما كانت من أباريق وقف الإبريق.

إن امتداد فكرة الوقف من المؤسَّسة الدينيَّة إلى البرِّ العامِّ -الذي يَطُولُ الخدماتِ الاجتماعيَّةَ وتَقْدِيم المنافع والسلع العامَّة- كان ابتكارًا إسلاميًّا خالصًا، جاءت به الرسالة الإسلاميَّة الخالدة، شأنه في ذلك شأن الوقف الذُّرِّيِّ الذي نتج عن اجتهادات صحابة رسول الله ﷺ الهداة المهديين.

والجدير بالذكر أن المسلمين قد سبقوا الغرب بثلاثة عشر قرنًا في مجال الأوقاف والمؤسَّسات الخيريَّة العامَّة، فمِنْ أوَّل الأوقاف الغربيَّة ذات النفع العامِّ كان وقف كارنيجي؛ الذي أسسه السيد أندرو كارنيجي[1] عام (1911م) في الولايات المتحدة الأمريكيَّة، ووقف روكفلر؛ الذي تأسَّس عام (1913م)، وهناك الأوقاف المتخصِّصة بالتعليم، أو الصحَّة، أو البحث العلمي، أو مساعدة مرضى القلب، أو مرضى الكُلْيَتَيْنِ، وغير ذلك[2].

ومع التقدُّم السريع الذي وصل إليه الغربيون في مجال الأوقاف، إلاَّ أن الوقف الغربي قد اختلف عن الأوقاف الإسلاميَّة اختلافًا جذريًّا؛ فالمؤسَّسات الاجتماعيَّة الغربيَّة كثيرًا ما يقتصر الانتفاع بها على أبناء بلادها أو مقاطعاتها، بينما كانت مؤسَّساتُنَا الاجتماعيَّة الوقفيَّة تفتح أبوابها لكل إنسان على الإطلاق، بقطع النظر عن جنسه أو لغته أو بلده أو مذهبه.

وهناك اختلاف جذريٌّ آخَرُ بين الأوقاف الإسلاميَّة والأوقاف الغربيَّة، تَمَثَّلَ في كون الأوقاف الإسلاميَّة التي وقفها أصحابها إنما أرادوا من أوقافهم الخير والمثوبة؛ حتى إن جمهور الفقهاء مُجْمِعُون على ضرورة وجود القربى في الوقف[3]، وهو أمر عقائدي

---

(1) أندرو كارنيجي (1835-1919م): إمبراطور الحديد والصلب الأمريكي الأشهر، أسس مؤسسة كارنيجي للسلام العالمي، ومجلس كارنيجي الأمريكي للأخلاق والعلاقات الدولية.

(2) انظر: الموسوعة الأمريكية ص646، طبعة 1994م، ومنذر قحف: الوقف الإسلامي.. تطوره، إدارته، تنميته ص23، 24.

(3) انظر: مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا ص94.

أخلاقي يختلف كل الاختلاف عن المفاهيم الغربيَّة والمصالح المترتِّبة على إنشاء أوقافهم، وأمر ثالث؛ أن الأوقاف الإسلاميَّة قد ارتبطت بمقاصد الشريعة الإسلاميَّة الغرَّاء؛ فبحثت في المقام الأول على جلب المصالح للمسلمين، ودرء المفاسد عنهم، فحقَّق الوقف للمجتمع الإسلامي المقاصد الضروريَّة والحاجيَّة والتحسينيَّة، فأضحت حضارتنا من أعظم الحضارات الإنسانيَّة على الإطلاق.

ومهما يكن؛ فإن استعراضنا الآنف لروائع الأوقاف في حضارتنا الإسلاميَّة ليُؤَكِّد بما لا يدع مجالاً للظنِّ أن غاية الحضارة الإسلاميَّة -وإن شابها النقص البشري- هي إرضاء ربِّ العالمين؛ فرِضَا الله ﷻ الذي يجيش في قلوب العباد على مرِّ الزمن قد أنتج ما لا يُحصى من الأوقاف النافعة؛ التي حمت المجتمع الإسلامي -ولا يزال- من آفات كانت خليقةً بتدميره من جذوره، ومن ثَمَّ القضاء على حضارته التي ظَلَّت قرونًا طويلة حتى أنهكها الاحتلال الأجنبي المقيت؛ الذي بدَّد بعضًا من تلك المعاني والمعالم الخالدة!